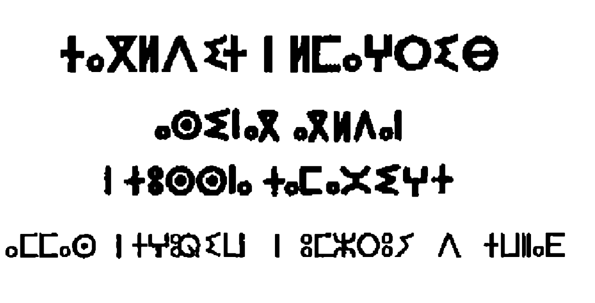


تاريخ الاستعمار والمقاومة بالبادية المغربية خلال القرن العشرين

ⴰⵎⵣⵔⵓⵢ ⵏ ⵓⵙⴷⵓⵔⵔⵉ ⴷ ⵜⵏⵣⴱⴰⵢⵜ ⴳ ⵓⵥⴰⵔⴰ
ⴰⵎⵖⵔⴰⴱⵉ ⴳ ⵜⴰⵙⵓⵜ ⵜⵉⵙ ⵙⵏⴰⵜ ⵉⴷ ⵎⵔⴰⵡ

تنسيق : المحفوظ أسمهر
المراجعة والإعداد للنشر : علي بنطالب

2010



المملكة المغربية

المعهد الملكي

للثقافة الأمازيغية

مركز الدراسات التاريخية والبيئية

تاريخ الاستعمار والمقاومة بالبادية المغربية

خلال القرن العشرين

ⴰⵎⵣⵔⵓⵢ ⵏ ⵓⵙⴷⵓⵔⵔⵉ ⴷ ⵜⵏⵣⵖⴰⵢⵜ ⴳ

ⵓⵃⴰⵔⴰ ⴰⵎⴽⵔⴰⵖⵉ ⴳ ⵜⴰⵙⵓⵜ ⵜⵉⵙ ⵙⵏⴰⵜ ⵉⴷ ⵎⵔⴰⵡ

- تنسيق : المحفوظ اسمهر

- المراجعة والإعداد للنشر : علي بنطالب

منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية

مركز الدراسات التاريخية والبيئية

سلسلة الندوات والمناظرات رقم : 22

العنوان : تاريخ الاستعمار والمقاومة بالبادية المغربية خلال القرن العشرين

التنسيق : المحفوظ أسمهر

المراجعة والإعداد للنشر : علي بنطالب

الناشر : المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية

تصميم الغلاف : وحدة النشر

صورة الغلاف : مذكرات من التراث المغربي، الجزء الخامس، 1985

إخراج وطبع : مطبعة المعارف الجديدة - الرباط/2010

رقم الإيداع القانوني : 2010 MO 1237

ردمك : 978-9954-28-047-8

فهرس المحتويات

ورقة عمل حول اليوم الدراسي:

"تاريخ الاستعمار والمقاومة بالبادية المغربية خلال القرن العشرين"

يوم 4 أبريل 2006

المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية

أثرت أحداث الفترة الاستعمارية على جوانب مختلفة من تاريخ المغرب المعاصر، سواء السياسية منها والاجتماعية والاقتصادية، وغيرها. كما لم تتوقف المقاومة، بكل أشكالها، طيلة هذه الفترة، مما ساهم بشكل كبير في إحداث تغييرات زعزعت بنيات المجتمع المغربي التقليدي.

ورغم التراكم النسبي الذي حققته الكتابات حول هذه المرحلة الانتقالية من تاريخ المغرب المعاصر، فإن العديد من القضايا ما تزال في حاجة إلى مزيد من البحث والدراسة، خاصة ما يتعلق منها بمساهمة البادية في صنع أحداث هذه المرحلة والتأثير في مجرياتها، وكذلك حقيقة التحولات التي أحدثتها الفترة الاستعمارية بمختلف بنيات وشرائح المجتمع المغربي عموما، والبدوي منه على وجه الخصوص.

يتوخى هذا اليوم الدراسي الوقوف على مثل هذه الجوانب الغامضة أو غيرها، مما يسمح بفهم أعمق لدور الأرياف والبوادي المغربية في رسم مسار تاريخ المغرب المعاصر، الدور الذي ما يزال يلقي بظلاله على حاضر المجتمع المغربي.

وتبعا لما تقدم، نقترح أن يتناول اليوم الدراسي المحاور الآتية:

- بدايات وأشكال التغلغل الاستعماري بالبوادي المغربية؛
- خصوصيات المقاومة بالبوادي المغربية؛
- العلاقة بين المقاومة بالبوادي والحواضر؛
- آثار الفترة الاستعمارية على البنيات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية بالبوادي المغربية.

المحفوظ أسمهر

تقديم :

لعبت البادية المغربية دورا كبيرا في تاريخ المغرب، وتجسد هذا الدور في محطات مختلفة كانت فيها البادية إما صنيعة الأحداث والوقائع أو عنصرا مؤثرا في مجرياتها. فمن البوادي انطلقت الحركات المؤسسة لعدد من الدول التي حكمت المغرب، ولعب سكانها دورا أساسيا في مقاومة كل القوى الأجنبية التي كانت لها إطماع استعمارية بالمغرب. ومعلوم أن هذا الأخير لم يتم احتلاله بشكل كلي إلا في القرن العشرين، وقد بذلت كل من فرنسا وإسبانيا جهودا كبيرة، استمرت لعقود، من أجل إنهاء احتلال البلاد، وشكلت البادية المغربية عقبة كأداء عرقلت التدخل الأجنبي وألحقت بالمحتلين خسائر فادحة.

ورغم توافر بعض الأبحاث التي ساهمت في التعريف بدور البادية المغربية في صنع أحداث مغرب القرن العشرين، فإن أهمية هذا الدور وتعدد الجوانب المرتبطة به جعلته ميدانا خصبا للبحث، حيث لازال التدخل الأجنبي وما ترتب عنه من أشكال المقاومة التي شهدتها العديد من بوادي المغرب في حاجة إلى اهتمام المؤرخين من أجل الكشف عن صفحات مشرقة من صمود سكان تلك المناطق.

للمساهمة في طرح إشكالية التدخل الأجنبي والحقبة الاستعمارية بالبادية المغربية، خلال القرن العشرين، نظم مركز الدراسات التاريخية والبيئية بالمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية يوما دراسيا، في 4 أبريل 2006، في موضوع : "**تاريخ الاستعمار والمقاومة بالبادية المغربية خلال القرن العشرين**".

إن عملا من هذا القبيل من شأنه، من الناحية الأكاديمية، المساهمة في إبراز دور البادية المغربية والتحولات التي أحدثها الاستعمار ببنياتها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وذلك عبر مقاربة مجموعة من المواضيع والمحاور المرتبطة بمجالات وقضايا مختلفة، حاولت كلها الوقوف عند جوانب مرتبطة بالتدخل الأجنبي وأوجه مقاومته، منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر إلى غاية الحصول على الاستقلال.

في هذا الإطار تقدم مجموعة من الباحثين المتخصصين بمداخلات حاولت إيجاد الأجوبة الملائمة للعديد من التساؤلات الخاصة بأشكال وعواقب التدخل الأجنبي خلال القرن العشرين، وطبيعة المقاومة التي واجهت بها البادية المغربية هذا التدخل. هكذا حاولت العروض المقدمة

إبراز جوانب مرتبطة بالموضوع، مركزة على نماذج دالة من بوادي مختلفة: مثل بوادي المغرب الشرقي، وتافيلالت، والسهول الساحلية والوسطى، ثم بوادي منطقة سوس، وصولا إلى الصحراء المغربية وإسهام قبائلها في مقاومة التدخل الأجنبي.

إلى جانب هذه المواضيع المرتبطة بمجالات معينة، كانت هناك مداخلات أبرزت مثلا دور الطب كأداة للتسرب الاستعماري السلمي، وأثر التدخل الأجنبي في البوادي على القاموس اللغوي، ثم مكانة الأرياف في الحركة الوطنية. وقد خلصت جميع المداخلات إلى أهمية الدور الذي لعبته البادية خلال فترة حساسة من تاريخ المغرب المعاصر. واعتمدت في مجملها على وثائق مغربية وأجنبية، وعلى مصادر ومراجع متنوعة.

وشكلت العروض المقدمة نماذج فقط عن مقاومة البوادي المغربية للتدخل الأجنبي، والتحولات المتعددة التي أحدثها الاستعمار ببنياتها المختلفة، والأمل معقود على تواصل الأبحاث في تاريخ البادية المغربية، خاصة ما يرتبط بالفترة المعاصرة والراهنة.

علي بنطالب

الطب الاستعماري من عمل إنساني إلى أداة للتسرب الاستعماري السلمي(*)

ذ. زكي مبارك
مؤرخ -باحث

I - التسرب الاستعماري السلمي : المفهوم والسياق والأداة:

وظفت المؤسسات الاستعمارية الفرنسية السياسية والتجارية والعلمية تجارب سياستها وأساليب الهيمنة الاحتلالية والتوسعية في كل من المشرق العربي، وإفرقيا، وآسيا، لنهج أسلوب جديد لاحتلال المغرب واستعماره واستيطانه. الأسلوب الجديد يأخذ بعين الاعتبار، وبوجه أخص، التجربة الاستعمارية الجزائرية والتونسية، نظرا لما يوجد بين البلدان المغاربية الثلاثة من روابط الجغرافية والتاريخ والجنس واللغة والدين والمقومات الحضارية المشتركة.

هذا الأسلوب الجديد لاحتلال المغرب حتمته خصوصياته التاريخية، وعلاقاته الدبلوماسية، ونظام حكمه وما يربطه مع العديد من الدول الأوربية وأمريكا من معاهدات واتفاقيات حظيت بواسطتها بامتيازات استراتيجية، وانتزعت بها فوائد تجارية، وتمكنت من الحصول على تنازلات ومكتسبات حرصت هذه الدول على الحفاظ عليها وديمومة استمرارية مقتضياتها في نطاق التنافس الحاد بين هذه الدول الأوروبية التوسعية والاحتلالية والاستغلالية لثروات الشعوب، والتي قسمت العالم إلى مناطق نفوذ.

هذه الخصوصيات وغيرها تفسر إلى حد بعيد الأسباب الموضوعية والتاريخية التي حالت دون احتلاله مبكرا من طرف فرنسا وإسبانيا بعد هزيمة الجيوش المغربية أمام الجيوش الفرنسية في معركة إيسلي (1844 م)، وأمام الجيوش الإسبانية في معركة تطوان (1860م)، لقد كان بمقدور الدولتان التوغل إلى داخل البلاد وفرض سيطرتهما العسكرية والسياسية على الحكام المغاربة لولا المعارضة القوية لكل من انجلترا وألمانيا وإيطاليا وأمريكا، نظرا لما كان لديها في

(*) ملاحظة : هذا العرض يجمع بين مداخلتين : الأولى قدمت في اليوم الدراسي حول "تاريخ الاستعمار والمقاومة بالبادية المغربية" المنظم من طرف المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية. والثانية قدمت في الندوة الدولية حول: "الاستعمار بين الحقيقة التاريخية والجدل السياسي" المنظمة من طرف وزارة المجاهدين الجزائرية. يومي 2 و 3 يوليوز 2006 بالجزائر العاصمة.

المغرب من امتيازات مختلفة[1]. لهذه الأسباب وغيرها، اضطرت فرنسا وإسبانيا إلى تأجيل تنفيذ مخططاتها الاحتلالية للمغرب في انتظار الظروف المواتية، سيما وجيوشها أصبحت ترابط بالحدود المغربية، وعلى أتم الاستعداد للتدخل. وفي انتظار توفر هذه الظروف، ومن أجل إنضاجها، شرع رواد الفكر الاستعماري ومنظريه في وضع تصورات ومخططات ومناهج وأساليب للتسرب السلمي، تستبعد من جهة، المواجهات العسكرية واللجوء إلى العنف والقوة، ومن جهة أخرى، السعي إلى إيجاد حلول توفيقية مع الدول الأوروبية المهتمة والمعنية بالقضية المغربية، وذلك بمنحها إمتيازات وترضيات في أماكن أخرى، مقابل غضها الطرف على تفرد فرنسا باحتلال المغرب لاستكمال سيطرتها وهيمنتها على بلدان شمال إفريقيا بأكملها، المطلة على ضفة البحر الأبيض المتوسط، المقابلة للضفة الأخرى للبلدان الأوروبية المتوسطية[2].

من رواد الفكر الاستعماري الأوائل ومنظريه الذين نادوا باستبعاد المواجهات العسكرية، واعتماد الأساليب السلمية للتسرب والتدخل Raymond Thomassy، في تقرير وجهه إلى حكومته بخصوص هذا النهج والأسلوب، جاء فيه: "....**على فرنسا أن تبادر إلى التعرف على ساحة المعركة حيث تنتظرها مصائر تزداد مجدا كلما كانت أقل دموية، وانتصارات تزداد رسوخا كلما نيلت بأسلحة سلمية، والعلم هو أحد هذه الأسلحة وأول سلاح ينبغي توظيفه لأنه هو الذي سيعمل على تعبيد الأرضية التي ينبغي الزحف إليها**"[3].

على أساس هذه التوجهات ورؤى ونظريات متشابهة توصي كلها بتوظيف العلم والمعرفة لخدمة الأهداف الاستعمارية، تم تجنيد وتعبئة وتشجيع العديد من الجامعيين، والدبلوماسيين، والأطباء، والمهندسين، والسواح، والعسكريين، للقيام بجولات داخل المغرب، يخترقونه طولا وعرضا، في لبوس شتى، وبتقمص شخصيات إسلامية تحظى من لدن المواطنين المغاربة، في البوادي والحواضر، بالتوقير والاحترام.

---

(1) من بين الدراسات الأساسية في هذا الموضوع كتاب امحمد ابن عبود : **مركز الأجانب في مراكش - دراسة قانونية لوضعية الأجانب في المغرب قبل عهد الحماية وخلاله-تطوان** - **1980**- هناك دراسة أخرى تتناول جانبا من هذا الموضوع للدكتور عبد الواحد ناصر-**التدخل العسكري الأجنبي في المغرب، قراءة في جيوستراتيجية المغرب خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين**-مطبعة اليت-سلا 1999. وبحث زكي مبارك عن **المقاومة الدبلوماسية للتغلغل الاستعماري للمغرب** (1860-1872)، نشر بالمجلة التونسية للعلوم الاجتماعية، السنة العشرون 1983-، العدد 72/75 - صفحة 13 إلى 30، مع بيبلوغرافيا ومراجع حول الموضوع.

(2) محمد بناني - آثار المعاهدات الدولية المبرمة خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين على سيادة الدولة المغربية- أشغال الجامعة الصيفية بمدينة المحمدية - المغرب/يوليوز 1987 - الجزء الثاني - صفحة 101-133.

(3) جرمان عياش : **التاريخ والاستعمار** - بحث نشر ضمن مجموعة من الدراسات بعنوان **دراسات في تاريخ المغرب** -الشركة المغربية للناشرين المتحدين- الدارالبيضاء - 1986 - صفحة 11 إلى 32.

وبهذا التنكر والتحايل تمكن نفر من هؤلاء من إنجاز دراسات وبحوث حول البلاد، أرضا، وشعبا، وتاريخا، وعادات، وتقاليد، ونظام الحكم وعلاقاته بالمحكومين[4].

من أهم الدراسات التي أنجزت في هذا السياق، تلك التي قام بها Charles de Foucauld الذي يعد بحق في طليعة رواد الفكر الاستعماري التنصيري، وصاحب نظريات **"التنصير والتبشير في خدمة الاحتلال الاستعماري السلمي كأداة للتدخل والهيمنة"**. فبعد جولاته في المغرب من شماله الى جنوبه، ومن شرقه الى غربه وصحرائه، مدة سنة تقريبا، من 20 يونيو 1883م إلى مايو 1884، تمكن من حصد معلومات وإفادات قيمة شملت كل ميادين المعرفة، دونها في كتابه المشهور "Reconnaissances au Maroc". وقبل طبع هذا الكتاب، قدم نسخة خطية منه إلى "الجمعية الجغرافية" بباريس التي منحته أول وسام ذهبي من أوسمتها التكريمية في جلستها المنعقدة يوم 24 أبريل 1885 م، تقديرا لما أضافه من معطيات علمية قيمة عن الحالة والأوضاع في المغرب، مما جعل كتابه يعد من المصادر الأساسية لمعرفة المغرب أرضا وشعبا ودولة.

أما Edmond Doutté، وهو كذلك قطب من أقطاب علم الاجتماع الاستعماري المغاربي، فقد وجه تقارير ودراسات وبحوث إلى حكومته. من هذه التقارير ذلك الذي رفعه إلى الوالي العام الفرنسي بالجزائر يقترح فيه أسلوبا ومنهجا لاحتلال المغرب، ومما ورد فيه: "**...ضرورة أن يسبق الاحتلال القهري الفتح العلمي ليكون هو كذلك فتحا فرنسيا، وذلك لأن العلماء الذين يبعث بهم إلى المغرب ينقلون إلينا المواد الضرورية لإقامة سياستنا المغربية، هذا إضافة إلى أن هناك مصلحة فائقة ليتحول المغرب إلى ميدان العلم يشتغل فيه العلماء الفرنسيون وعلماء الجزائر على وجه التخصيص. لكن لا ينبغي أن لا نكثر من الوفود العلمية من الجزائر حتى لا نثير انتباه المنافسين لنا.**

غير أن أهم شيء هو أن لا يبدو للسياسة أي دور في هذه الأمور كلها... فإن أعمال علمائنا وإن انحصرت إطلاقا عند مجال تخصصهم، فإن لها مفعولا يتجاوز الغاية العلمية، لأنها تمدنا بسبب آخر من أسباب التدخل في شؤون المغرب."[5]

من منظري سياسة التسرب السلمي كذلك Eugène Etienne أحد أبرز زعماء الحزب الكولونيالي الفرنسي المتحمسين لاحتلال المغرب لكونه على صلة بما يجري داخله بحكم تواجده بمدينة وهران الجزائرية، وكنائب عنها في البرلمان الفرنسي، وبحكمه يتزعم ويوجه نشاط مجموعة من رجال الأعمال والتجارة ذوي النزعة الاستعمارية. فقد كتب عدة مقالات وبحوث

(4) بوطالب ابراهيم: **البحث الكولونيالي حول المجتمع المغاربي في الفترة الاستعمارية. حصيلة وتقويم** - نشر ضمن أعمال: "**البحث في تاريخ المغرب، حصيلة وتقويم**"، منشورات كلية الآداب - الرباط - سلسلة ندوات ومناظرات - رقم 14-1989- صفحة 107-173.

(5) بوطالب ابراهيم : نفس المرجع.

يشرح فيها وجهة نظره الاستعمارية، ومن بين هذه المقالات ذلك الذي نشره في ديسمبر 1898 بمجلة "القضايا الدبلوماسية والاستعمارية"، ومما ورد فيه: "**...لدى فرنسا في المغرب، حقوق وواجبات تفوق حقوق أي قوة دولية أخرى ...والمصدر الأول لحقوقنا هو الجزائر. فالجزائر هي التي أدت بنا إلى تونس، وعليها أن تؤدي بنا، رغم بعض المصاعب بدون شك إلى المغرب. فاحتلال تونس لم يتم دفعة واحدة، كما قد توحي بذلك بعض المظاهر الخادعة، بل إنه نتيجة جهد طويل من التسلل والاحتواء، وفي المغرب يفرض تكتيك مماثل نفسه، ببطء وحذر كبيرين، لكن سيكون من باب تجاهل التاريخ، عدم الاستعداد لمساندة عملنا السلمي المشروع بالقوة. هذا العمل الذي تخول لنا وضعيتنا حق ممارسته في المغرب**"[6].

من هذه الكتابات والتقارير أدركت التيارات الاستعمارية بكل توجهاتها قيمة المعرفة وضرورة توظيفها لتحقيق وإنجاز مشاريعها الاستعمارية بأقل ما يمكن من خسارة مادية وبشرية، وبوسائل أكثر فعالية ونجاعة لإطالة وترسيخ مظاهر هذا الاحتلال. كما أدركت كذلك ضرورة الاعتماد على المعرفة لتبرير مشروعها الاستعماري والدفاع عن شرعيته كواجب تحضيري وتمديني. ومن هذا الإدراك بدور توظيف المعرفة وفوائدها، تم إحداث مؤسسات علمية حكومية، وتشجيع شخصيات وهيئات فكرية لإنجاز دراسات وبحوث أو تحليل ما تم إنجازه حول المغرب لتجعل رهن إشارة أصحاب القرار السياسي من مدنيين وعسكريين للاعتماد عليها والاستئناس بها لوضع المخططات والأساليب الملائمة لإخضاع المخزن المغربي لرغبات الدولة الفرنسية وطموحاتها، "**... وللنفوذ إلى ضمائر السكان وعقولهم وقلوبهم لتهييئهم سيكولوجيا للتفاعل والتعامل الإيجابي مع مختلف مظاهر وصور التغلغل الاستعماري السلمي...**"[7]، ومن مظاهر هذا التغلغل السلمي وأدواته: الأعمال الصحية والوقائية والتطبيب.

II - المجلس الصحي الدولي : أداة لنهك السيادة الوطنية:

إقتنعت الدول الاستعمارية بأن انتشار التجارة وتقدم وسائل الإتصال والنقل والتنقل رافقه كذلك سرعة انتقال وانتشار الأوبئة والأمراض المعدية والفتاكة إلى داخل البلدان الأوربية. ولمواجهة هذا التهديد عقدت سلسلة من المؤتمرات لدراسة الإجراءات التي من شأنها الوقاية من انتشار وانتقال الأوبئة والأمراض المعدية إلى داخل دولها. ضمن هذا السياق، وعلى أساس هذه الاعتبارات أحدثت الهيئة الدبلوماسية الأوروبية المعتمدة في مدينة طنجة عاصمة المغرب

---

(6) ألبير عياش (Albert Ayache): **المغرب والاستعمار-حصيلة السيطرة الفرنسية**، دار الخطابي للطباعة والنشر-المغرب - 1995، صفحة 73.

(7) غر بغوار مرشو : **ملاحظات حول المقدمات المعرفية للهيمنة الغربية** - مجلة "رسالة الجهاد" الليبية - العدد - 75 مارس - 1989 صفحة 94-98.

الدبلوماسية، ومقر ممثل السلطان المكلف بالشؤون الخارجية، أول مؤسسة صحية تحت إسم: المجلس الصحي الدولي. ففي 28 أبريل 1840 م تقدمت الهيئة القنصلية بطنجة إلى سلطان المغرب بمشروع قانون يؤسس بموجبه "مجلس صحي" يعهد إليه بالسهر على الجوانب الصحية بجميع المراسي التجارية وذلك باتخاذ الإجراءات الوقائية ضد السفن القادمة إلى المغرب من الجهات الموبوءة، بدون التدخل في الشؤون الصحية الداخلية للدولة المغربية. إلا أن هذا المجلس سرعان ما أخذ يتجاوز صلاحياته واختصاصاته حيث شكل نشاطه تدخلا سافرا في شؤون المغرب الداخلية، ومساسا بسيادته الوطنية. فمن مظاهر هذا التدخل السافر إقدام المجلس بضرب حصار على السفن العائدة بالحجاج المغاربة إلى بلادهم، بل ذهب به الحال سنة 1856 إلى رفض السماح لإحدى السفن المقلة للحجاج المغاربة بالتزود بالمؤن الضرورية لركابها مما كاد يعرضهم لموت محقق في عرض البحر.[8]

من تدخلات هذا المجلس أيضا في الشؤون الداخلية المغربية، الإجراءات التي اتخذها ومن تلقاء نفسه، خلال ظهور وباء الكوليرا بمدينتي مكناس وفاس سنة 1878. إنه تجرأ على ضرب حصار صحي حول طنجة وبعض الموانئ المغربية الأخرى، لمنع القادمين من الدخول إليها، وقد طبق هذا الإجراء بصرامة متناهية، الى حد أن رسل السلطان مولاي الحسن، الذين أوفدهم إلى طنجة حاملين أوامره إلى نائبه محمد بركاش بإلغاء هذه التدابير، منعوا من الدخول، ولم تحظ رسائل السلطان الموجهة إلى المجلس الصحي بأي اعتبار.[9]

تلخص أوجه هذا السلوك والطغيان ونتائجه الفقرات التالية : "**إن المجلس الصحي دأب في مدينة طنجة على التصرف في شؤونها الحضرية، مستبدا برأيه وكأنه في مدينة مفتوحة، وقد توج هذا التدخل عام 1892 عندما انتزع من السلطان مولاي الحسن ثلاثة ظهائر جديدة كانت نقطة انعطاف أخرى في تنامي نفوذه، إذ خولته حق ممارسة أنشطة جديدة بالمدينة شبيهة بالتي تمارسها اليوم المجالس البلدية... لقد تحولت المراقبة الصحية الدولية إلى وسيلة لنهك السيادة الوطنية ودوس حقوق المخزن... وباعتبار أنها مست مجالات جد حساسة كمجال الحج، فإنها كانت صدمة عنيفة للإنسان المغربي، ومن ثم لا بد أن تكون قد أدت إلى حدوث خدشات عميقة في نسيج العلاقات بين المخزن ورعاياه.**"[10]

(8) اعتمدنا في هذا الموضوع على الدراسة التي أنجزها الدكتور محمد الأمين البزاز حول المجلس الصحي الدولي... فمن بين المقالات التي نشرها حول الجانب المتعلق بدوره في التدخلات الأجنبية في شؤون المغرب ذلك الذي ساهم به في الجامعة الصيفية بالمحمدية – نشر البحث ضمن أشغال الندوة – الجزء الثاني– صفحة 87 إلى 99). كما اعتمدنا كذلك على المؤرخ الفرنسي J.L. Miège في كتابه Le Maroc et l'Europe / الجزء الرابع/ من صفحة 351 إلى 354 – وباقي الأجزاء.

(9) نص رسالة السلطان مولاي الحسن إلى نائبه محمد بركاش - في كتاب M. Nehlil **رسائل شريفية** – E. Guilmoto باريس 1915/ لوحة XLI.

(10) محمد أمين البزاز - **المرجع السابق ذكره**/ صفحة 99.

أما المؤرخ الفرنسي J.L. Miège فأورد بخصوص تدخل الجاليات الأوروبية والهيئات القنصلية في الشؤون الصحية لبعض المدن المغربية: "**أدى استقرار الجاليات الأوروبية بالمدن المغربية إلى تدخلها في الشؤون الصحية وأشغال الصيانة والنظافة، بعد انتشار وباء الكوليرا سنة 1878. فعلى صعيد مدينة الدار البيضاء نظم القناصلة والتجار الأوروبيون حملة إكتتاب لتنظيف المدينة، فشكلوا شبه مجلس بلدي لتدارس الأوضاع الصحية وأشغال الصيانة والنظافة، فتقدموا بمذكرة من 14 صفحة في الموضوع إلى قائد المدينة .إلا أن المخزن رفض مضمون المذكرة ...غير أنه، وبفعل ضغوطات الهيئة القنصلية تم تنظيف الأزقة وترصيف بعضها. أما في مدينة الصويرة فقد تدخل القناصل ليفرضوا على السلطات المحلية العناية بإصلاح مجاري المياه. وفي سنة 1890 فرض القناصلة المتواجدين بمدينة الجديدة على حكام المدينة حق مراقبة الصيد وموانئه وتحركات وتنقلات الصيادين... وخلاصة القول، فهذه الإجراءات والمبادرات التي مارستها الهيئات القنصلية والجاليات الأوروبية والتي بلغت أوجها واستفحلت مظاهرها وصورها المختلفة في كل من مدينتي طنجة والدار البيضاء، كان من نتائجها وعواقبها المباشرة والموضوعية إحداث مجالس بلدية خاضعة لنفوذ الجاليات الأوروبية ولقناصلها من أجل الدفاع عن مصالح الدول الأوروبية**"[11]. ويحدث هذا في مغرب مازال لم يخضع للاحتلال العسكري ولا للحماية الفرنسية والإسبانية بصفة رسمية.

III - الطب الاستعماري: عمل إنساني أم أداة للتسرب الاستعماري السلمي:

دافع مؤرخو النزعة الاستعمارية[12] عن الظاهرة الكولونيالية مبرزين الجوانب التي استفادت منها الشعوب المستعمرة، فجعلوا في مقدمات حسنات الاستعمار وفوائده: **الطب الاستعماري**. إلا أن مؤرخين آخرين من مدارس تاريخية مختلفة، وتوجهات فكرية متباينة، تصدوا لمزاعم هؤلاء وأطروحاتهم، ومن بين هؤلاء محررو كتاب "**الطب الامبريالي**"[13].

لقد تساءل هؤلاء "**...هل كان الطب الغربي في المستعمرات حقا طبا عقلانيا وإنسانيا؟ كما يدعي الكثيرون، وهل يعد حقا إحدى فوائد الامبريالية التي لا يمكن إنكارها؟ ألا يمكن أن يكون هذا الطب في الحقيقة سلاحا آخر من ترسانة الأسلحة الإيديولوجية للحكم الأجنبي التي**

---

(11) J.L. Miège - المغرب وأوروبا - الجزء الرابع - القسم الرابع الذي تناول فيه المؤرخ موضوع استقرار الجاليات الأوروبية وانعكاساته - صفحة 285 إلى 355.

(12) تناول المؤرخ الفرنسي C.R.Ageron أيديولوجية السياسة الاستعمارية في كتابه:
France coloniale ou parti colonial? PUF, Paris, 1978, P: 218.

(13) دافيد أرنولد -**الطب الإمبريالي والمجتمعات المحلية** - ترجمة/ د.مصطفى إبراهيم فهمي- سلسلة "عالم المعرفة" الكويتية - عدد 236 أغسطس 1998.

يستخدمها في محاولته للهيمنة؟ لمصلحة من استخدم هذا الطب؟ هل كان أساسا لمصلحة أفراد الإدارة الاستعمارية والجيش؟ أم لمصلحة شعوب المستعمرات أو الاثنين معا"[(14)].

1 - طب إنساني ولكن لمصلحة من؟

بموجب الاتفاقيات والمعاهدات التي أبرمها المغرب مع مجموعة من الدول الأوروبية والتي لجأ إليها كوسيلة دفاعية، وكمقاومة دبلوماسية للمحافظة على استقلال البلاد واحترام سيادتها، مستغلا التنافس الحاد القائم بين هذه الدول، اعترف لها بامتيازات تجارية ودبلوماسية في نطاق سياسة "الباب المفتوح" التي كانت تعني في بداية الأمر حرية التبادل التجاري مع المغرب، وعدم التمييز بين رعايا الدول الأوروبية في هذا المجال. إلا أن هذه السياسة تطورت شيئا فشيئا بفعل ضغوطات هذه الدول الدبلوماسية والتجارية والأمنية والصحية، لانتزاع امتيازات أخرى كإنشاء السكك الحديدية، وتجهيز الموانئ ومراقبتها، واستخراج المعادن، واستغلال الغابات، وشراء الأراضي الزراعية، وحق التملك، ومنح حمايات لمواطنين مغاربة تجعلهم أكثر ارتباطا وخضوعا وتبعية للقنصليات الأوروبية وتجارها ورجالات أعمالها.[(15)]

طبيعي أن يتطلب إنجاز هذه المشاريع استقرار وإقامة العديد من الأوروبيين في الموانئ المغربية أو داخل المدن وضواحيها، حسب الأنشطة التي تتعاطاها هذه الجاليات. كما أنه طبيعي كذلك أن تستقر عائلات القناصل ونوابها وممثلي السلك الدبلوماسي بالمدن التي تتواجد بها مقرات هذه القنصليات كالدار البيضاء، والرباط، وسلا، وفاس، والجديدة والصويرة، وتطوان. وعليه، فقد أدى توافد واستقرار هذه الجاليات إلى الاحتكاك بالمواطنين المغاربة، وبالأخص منهم أولائك الذين اتخذوا من بينهم أعوانا وسماسرة، وعمالا زراعيين، وخلطاء، وحراس، وأعوان خدمة. لقد حتم هذا التعايش المفروض بين المواطنين المغاربة في المدن والبوادي على الجاليات الأوروبية وجوب الاهتمام والاعتناء بأوضاعهم الصحية وحمايتهم من الأمراض والأوبئة لا حبا فيهم، ولكن لحاجة في نفس يعقوب.

فلحماية هذه الجاليات من الأوبئة والأمراض، سعت القنصليات والهيئات الدبلوماسية إلى جلب أطباء للسهر على صحة مستوطنيها وموظفيها المتواجدين في مختلف الموانئ والمدن.

فإلى حدود سنة 1845، كانت الهيئات الدبلوماسية المعتمدة بمدينة طنجة تستدعي أطباء من جبل طارق كلما دعت الضرورة إلى ذلك. وابتداء من سنة 1847، طلب القنصل العام الفرنسي المعتمد بمدينة طنجة من حكومته تعيين طبيب خاص ملحق بالقنصلية العامة، يتولى السهر على

---

(14) الطب الإمبريالي - المرجع السابق ذكره - صفحة 7 (المقدمة).

(15) هناك دراسة قيمة للباحث المغربي مصطفى بوشعراء: الاستيطان والحماية بالمغرب 1863-1894 - 4 أجزاء/المطبعة الملكية/الرباط/ 1984، تناولت هذه الموضوعات بتفصيل، وتعد هذه الدراسات مراجع لا غنى عنها في الموضوع.

صحة الجالية الفرنسية. وهكذا عين الطبيب العسكري دشماط الذي حل بالمدينة يوم 15 نوفمبر 1847، وظل يزاول مهنته ونشاطه التطبيبي إلى أواخر سنة 1849. لقد تميز نشاطه الطبي بجانبه الإنساني إذ كان يقدم العلاج للمرضى المسلمين واليهود بالمجان، كما تميز بتنقله باستمرار إلى ضواحي المدينة لتقديم العلاج والإسعافات للمرضى، بل حتى إلى ممثلي السلطات المخزنية كما هو الشأن بالنسبة لباشا مدينة العرائش في شتنبر1848.

من الأطباء ذوي النزعة الإنسانية والمهنية الصرفة نذكر الدكتور Rolinger الذي حل بالمفوضية القنصلية الفرنسية بطنجة سنة 1852، وظل يزاول نشاطه الطبي بها إلى غاية وفاته في يوليوز 1856. فلهذا الطبيب يرجع الفضل في إقناع القنصلية الفرنسية بإحداث أول مستشفى فرنسي بالمدينة الدبلوماسية في غشت 1854. ونظرا لدوره الإشعاعي ارتأت القنصلية الفرنسية إحداث مستشفى ثان سنة 1865، ساهمت في بنائه الحكومة المغربية بدفع نصيب من الغرامة التي فرضتها عليها الحكومة الفرنسية على إثر مقتل فرنسيين بمدينة تطوان في أكتوبر 1863.

من الأطباء الذين تعاقبوا على هذا المستشفى لتسييره الدكتور Gastex الذي بذل مجهودات جبارة لتقديم العلاج للسكان خلال انتشار وباء الكوليرا، بحيث بلغ عدد المعالجين عنده، في ظرف 6 سنوات، أزيد من 1200 مريض. أما بالمدن والموانئ الأخرى فنكتفي بذكر الأطباء الذين تميزوا عن غيرهم بنشاطهم الإنساني والمهني : الدكتور M.Schmidt والدكتور Maurer بتطوان. بمدينة العرائش والقصر الكبير الدكتور الإسباني Jose Jiminez والروسي R.Krakof. بمراكش الطبيب Krake. بالبيضاء الفرنسي Guiol الذي حل بالمدينة سنة 1868 لمكافحة داء الكوليرا، والدكتور Dobbert الذي قضى بالمدينة الاقتصادية حوالي 25 سنة، فأصبح عميد السلك الطبي. بمدينة فاس الطبيب J.Guitta الذي اتخذ الملاح مسكنا له، وكان يداوي الجالية اليهودية بالمجان والدكتور R.Robledo والطبيب الألماني Vendel والإنجليزي D.T.Churcher. وبمدينة الجديدة الطبيب الإيطالي L.Garrossino. أما بالرباط فكان يتواجد الدكتور Guien والدكتور M.T.Rodriguez الإسباني. وبمدينة الصويرة الطبيب الفرنسي Ollive، والإنجليزي Richardson Thomson الذي توفي بوباء الكوليرا، كما هلك ابنه قبله سنة 1878. كما نخص بالذكر الدكتور Laurent thevenin الذي حل بالمدينة أواخر سنة 1862، ونظرا لتفانيه في عمله وجديته وحسن سلوكه، تم استدعاؤه مرات عديدة إلى مراكش لمعالجة السلطان أو بعض رجالات المخزن.(16)

(16) أهم المعلومات التي أوردناها مأخوذة من مرجع J.L. Miège السابق ذكره، الفصل الثاني من الجزء الرابع - وكذا مرجع مصطفى بوشعراء - الجزء الرابع والأول من مؤلفاته الأربعة - الجزء الأول : **التطبيب الأجنبي ومجلس العافية** صفحة 167، وكذلك من مراجع أخرى متعددة.

2 - الطب في خدمة الاستعمار وأهدافه :

إذا كان جل هؤلاء الأطباء قد قاموا بواجبهم المهني والإنساني فمات منهم عددا، اقتداءا للواجب واستجابة لما يمليه الضمير المهني والإنساني، فإن هناك أطباء آخرين تم توظيفهم لأغراض سياسية أو عسكرية أو دبلوماسية أو تجسسية، حيث عهد إليهم بالتسرب داخل البلاد والاحتكاك بمختلف شرائحها الاجتماعية، وربط علاقات ودية مع الحكام ورجالات المخزن وأعيان المدن والقبائل، مما أتاح لكل فئة من هؤلاء، فرصة الإطلاع على أحوال البلاد والعباد، وإعداد تقارير وكتابات وأبحاث وكتب ومقالات صحفية تستفيد منها السلطات الاستعمارية لتوجيه وتحديد أساليب التغلغل الاستعماري السلمي، طبقا للسياسة التي حددها منظرو هذه السياسة.

كما تم توظيف أطباء عسكريين من مختلف المراتب لمرافقة البعثات الدبلوماسية لدى سلاطين البلاد، فأعدوا عنها، خلال رحلاتهم، دراسات جغرافية، وخرائط عسكرية، بل منهم من أصبح من مستشاري السلطان في المجال العسكري، ومن المرافقين للحركات السلطانية التأديبية أو الحملات العسكرية التي يقوم بها المخزن لإخضاع القبائل الثائرة أو المتمردة على سلطته أو على ممثليه، أو هما معا في بعض الحالات. ونكتفي، في هذا الباب، بذكر الدكاترة Linarès و Arnaud و Weisgerber. طبيعي أن يقدم كل صنف من هؤلاء، حسب موقعه وتخصصه والمهمة الموكلة إليه، تقارير سياسية واستخباراتية وتجسسية إلى الجهات المرتبطة بها. بهذه المهمات حوَّل هؤلاء الطب عن وجهته الإنسانية والنبيلة إلى طب كأداة للتغلغل الاستعماري. وسيزداد نفوذ الأطباء العسكريين ويتقوى خلال مرحلة حملات التهدئة العسكرية، أو محاربة القبائل الثائرة والمجاهدة ضد التغلغل الاستعماري العسكري بالبوادي المجاهدة.

هنا، سيلعب الأطباء العسكريون دورا أساسيا في تعبيد الطريق، وتسهيل ترسيخ الهيمنة الاستعمارية طبقا للسياسة والخطط التي وضعها المارشال ليوطي في هذا المجال. فهذا المستعمر"النير" اعتبر أن طبيبا واحدا يعادل فيلقا كاملا، وأن الطبيب يعد أداة قيمة وفعالة للاستقطاب والاحتواء والانجذاب. ويشرح أفكاره وآراءه بوضوح في المقدمة التي تصدرت كتاب أحد الأطباء العسكريين إذ جاء فيها: **"أفكاري حول أهمية الطبيب في المستعمرات ووظيفته ومساهمته في عمليات التهدئة معروفة... فكثير من سوء الفهم يزول بمجرد ما تحصل الثقة ويتم التفاهم... ولا أحد أفضل من الطبيب لبناء هذه الثقة، إنها تتحقق بين عشية وضحاها بمجرد أن يقتنع أحد الأعيان أو الحكام أو أي إنسان عادي بزيارة الطبيب الفرنسي كلما ألم به مرض، أو شعر بآلام توجعه. فإذا خرج من عند هذا الطبيب وخفت آلامه، يتم التغلب على الحاجز النفسي مما يسهل الإقدام على القيام بالخطوات الأولى لربط علاقات المودة"**[17].

---

(17) أمينة عوشر **Colonisation et campagne berbère au Maroc** مطبعة افريقيا الشرق-الدار البيضاء/ 2002 - صفحة 218 (الفقرة المترجمة من الفرنسية تحت مسؤوليتنا).

3 - الطب في خدمة التبشير والتنصير:

منذ الحروب الصليبية سعت الكنيسة المسيحية إلى الاعتماد على الحركات التبشيرية والتنصيرية لنشر مبادئها وعقيدتها، ولمواجهة المد الإسلامي وانتشار رقعته في مختلف البقاع من العالم. ولما ظهرت الحركات الاستعمارية والتوسعية الهادفة إلى الاحتلال والسيطرة على الشعوب غير الأوروبية، أدركت الحركات التبشيرية والتنصيرية فوائد الطب والأعمال الخيرية والإنسانية في مجال التنصير والتبشير، كعمل مكمل ومواز للاحتلال والهيمنة الأوروبية. جاء هذا الإدراك في تقرير أحد ركائز هذه الحركات التبشيرية بهذه الصيغة: **"هناك بعض المجالات للإرساليات يبدو أن الأطباء فقط هم الذين يستطيعون اكتساب أي نفوذ كبير فيها. وثمة كراهية متعصبة للمسيحية، لا يمكن هدمها إلا بإظهار التعاطف لما يحدث من آلام للجسد مصحوبا بالقدرة على تخفيفها. ويبدو أنه لا يمكن إلا من خلال العمل الطبي وحده العثور على ثغرة للنفاذ إلى قلوب هؤلاء الناس"**[18].

ومرة أخرى ستوظف الحركات التبشيرية والتنصيرية التجربة الجزائرية والتونسية لمباشرة أنشطتها في المغرب، تجربة ونصائح الكاردينال De Lavigerie، والراهب شارل دوفوكو على الخصوص الذي كان من الغلاة والمتحمسين لتنصير شعوب شمال افريقيا، اعتقادا واقتناعا منه أنه "...**إذا لم يتم تنصير المسلمين في شمال افريقيا بالتدريج والليونة، فستظهر حركة قومية تماثل التي ظهرت في تركيا، وإن لم يوفق تصيير تلك الشعوب فرنسية (المغرب، الجزائر، تونس) فإنها ستخرجنا من بلادها، فالوسيلة الوحيدة التي تصيرهم فرنسيين هي أن يصبحوا مسيحيين**"[19].

كيف يتم ذلك؟ وعلى أي أساس؟ وبأي أسلوب ومنهج؟ "**بالاعتماد على بيداغوجية التمسيح والتنصير، يلتمسها المبشرون والداعية من قيمة الإحسان والأعمال الطبية لا كغاية خلقية مطلوبة، ولكن كوسيلة خادعة يتخذها الطبيب المبشر وأعوانه لبلوغ أهدافه، فأول عمل يقوم به المبشر هو أن يوقع في قلوب الناس الألفة والمؤانسة ويصبح الإحسان بذلك قادرا على فتح الملاجئ والمعاهد والمدارس والمستشفيات ودور الأيتام للفتيات والفتيان. وفي هذا الجو تباشر الدعاية إلى الله في سكينة وهدوء، وتدوم هذه الحالة بضع سنين كثيرة فالمستقبل كله للإحسان**"[20]. هذه توجيهات الراهب فوكو ومنظري الحركات التبشيرية.

---

(18) **الطب الإمبريالي والمجتمعات المحلية** -مجلة عالم المعرفة /المرجع السابق ذكره-صفحة 37.

(19) الدكتور عزالدين العراقي : **شارل دوفوكو وهب حياته لتنصير المغرب العربي خدمة للاستعمار**، مجلة "البينة المغربية" العدد الثامن، السنة الأولى-دسمبر /1962/ صفحة 56.

(20) مصطفى الحنفي : **مصادر المعلومات الفرنسية عن المسلمين بشمال افريقيا-معطيات السياسة البربرية بالمغرب- دراسة في الأصول والمنطلقات-** بحث قدم في الندوة الدولية التي عقدت في الرياض 31 أكتوبر إلى 3 نوفمبر1999 -صفحة 17 من ملخص البحث.

فمن هذه الإرشادات والتوصيات، شرع الأطباء المبشرون وأعوانهم من راهبات ممرضات، وممرضين رهبان، في مزاولة أنشطتهم الخيرية والإحسانية، موازاة مع نشاطهم الطبي تحت رعاية وحماية بعثات دينية وإرساليات مسيحية وتنصيرية فرنسية وإسبانية وإنجليزية وألمانية وأمريكية التي أخذت بدورها تتنافس حتى في هذا الميدان كذلك. فمن بين هؤلاء الأطباء سنكتفي بالإشارة إلى أبرزهم نشاطا وحيوية وإشعاعا: ففي مدينة طنجة الدكتور T.G.Churcher استقر بالمدينة سنة 1885. تعلم اللغة العربية، وأشرف على المستشفى البروتستاني إلى سنة 1887 كعضو في الحركة التبشيرية North Africa mission. الدكتور Rocha والممرضة Sét Smith من الطائفة البروتستانية. بالرباط نذكر المنصر البروتستاني الإنجليزي الدكتور R.C.Kerr حل بالرباط سنة 1886 ليزاول مهنته التبشيرية تحت غطاء طبي.

بالدار البيضاء الدكتور H. Nott منصر انجليزي من بعثة North Africa mission حل بالمدينة سنة 1897، تجول داخل المغرب وكتب عدة بحوث ومقالات عن جوانب مختلفة من حياة السكان، كما نشير كذلك إلى الدكتور G.M.Grieve عضو N.A.Mission الذي حل بالمدينة في أبريل 1892، وتوفي بها في مارس 1906؛ بمدينة فاس الدكتور الإسباني Jacob Guitta، حل بالمدينة سنة 1887 وسكن بملاحها. ترك دراسة قيمة عن أمراض التيفوس الذي اجتاح المدينة وأدى إلى وفاة حوالي 2000 يهودي بالملاح[21].

أما الأساليب والمناهج التي اعتمدها الأطباء المبشرون بمختلف توجهاتهم فقد حاولت مسايرة عقلية المواطنين المغاربة، وتكيفت مع قابليتهم وردود فعلهم تجاه هذه الأنشطة ومدى قناعتهم بهذا الطب وإدراكهم لخلفياته ومقاصده. ففي بعض المستوصفات والمراكز الصحية حاولوا إقناع المرضى بأن العلاج الذي يقدم إليهم هو في المقام الأول علاج روحي من روح "القدس" وليس علاجا طبيعيا، وأن إخراج الروح الشرير الذي يسكن في بدن الإنسان روحيا هو الذي يشفي المرض وليست الأدوية التي يتعاطونها.

عن أسلوب ومنهج هؤلاء الأطباء نورد شهادات تنقلها كاتبة وصحفية إنجليزية تجولت في مغرب بداية القرن العشرين، وتناولت موضوع الحركات التبشيرية التي تعتمد التطبيب وأعمال البر والإحسان لنشر وترسيخ معتقداتها. فمن خلال بعض الوثائق التي اطلعت عليها، ومن تحرير الحركات التبشيرية نفسها، نقلت المقتطفات التالية من تحرير إحدى الراهبات :

"إن عددا كبيرا من النساء قدم إلى المستوصف منذ رمضان، وكن يستمعن إلى ما أقول، وكان يبدو عليهن عدم المبالاة، ما دمن يعتقدن أن من واجبنا أن نتحدث إليهن قبل أن نقدم إليهن

---

(21) مصطفى بوشعراء: **الاستيطان والحماية بالمغرب** -المرجع السابق ذكره-الجزء الأول من صفحة 167-173.

الدواء، وجاءتني سيدة للعلاج وسألتني بعض الأسئلة عن البعثة، وانتهى بي الأمر إلى التحدث إليها عن الإنجيل، فالفتت إلى أختها وسألتها: هل يجلس إليها المسلمون للاستماع إلى هذا الكلام؟ فأجابتها بأنهم مجبرون عليه، وإلا فلا دواء"[22].

ومما جاء في منشور آخر على لسان راهبة، تضيف الكاتبة الإنجليزية: **"قال لي زوج آمنة أنه سيظل مدينا إلي مدى الحياة لأنني شفيت ابنته، ولكن كل امرئ منا يحب أن يتشبث بالديانة التي ولد عليها، ولذلك فإن من المستطاع أن تزورينني في منزلي كالعادة، شريطة أن لا تتحدثي عن المسيح. وقال لها بعد ذلك: "ما صنعت بآمنة وصالحة إنهما يصليان باسم المسيح، وإنك لتعرفين مبلغ ضعف نسائنا وجهلهن، ولذلك فإن علينا أن نرعى أرواحهن وقلوبهن، وأنت تعرفين إننا كنا نحبك، ولكن ذلك الحب انقلب اليوم إلى كراهية ومقت، وسوف نبذل أقصى ما في استطاعتنا لاقتلاع جذور هذه العقيدة التي زرعتها في قلوب نسائنا، ومن واجبي أن أطلب منك الإقلاع عن زيارة منزلي إلا إذا وعدتني بأن لا تثيري مرة أخرى موضوع الدين."[23].**

وهذه صورة أخرى عن مناهج وأساليب التبشير بالمراكز الصحية كما يصفها أحد المبشرين بمدينة مراكش: **"...أمام باب دار البعثة تقبع جماعة من الناس قبل الافتتاح. وفي الساعة الثامنة يفتح المركز، ويدخل النساء والرجال إلى الدار ليستقر كل جنس في البيت...فيعظهم القس ويرد على اعتراضات الجمهور، الذي يظل بعضه صامتا، ويخرج البعض الآخر غاضبا، مفضلا مغادرة القاعة دون دواء على أن يسمع كلام كافر، وبعد نصف ساعة يبدأ العلاج، ويجري نفس الشيء مع النساء في الغرفة الأخرى".** ويعلق الباحث المغربي بوشعرا على هذه الصورة : **"وهكذا كان العلاج الجسماني يبدأ بالوعظ العقائدي، وبمخاطبة الضمائر قبل فحص الأبدان، في هاته الصورة التي قدمت على أنها مجرد مثال"[24].**

خـلاصـات:

الخلاصة الأولى:

قليلة هي الدراسات والأبحاث الوطنية التي أولت أهمية ملحوظة للطب الاستعماري، كأداة وسلاح آخر من ترسانة الأسلحة الإيديولوجة للهيمنة والاحتلال. وعليه، فهذا الجانب ما زال في حاجة ماسة إلى عناية الباحثين والمؤرخين.

---

(22) عبد المجيد بن جلون : **جولات في مغرب امس-1901**- مكتبة المعارف-الدار البيضاء ب.ت.صفحة 47-49 (الجزء الأول).

(23) عبد المجيد بن جلون: **نفس المرجع**، صفحة 49.

(24) مصطفى بوشعراء :المرجع السابق ذكره-الجزء الرابع صفحة 1430.

الخلاصة الثانية :

الكتابات الأجنبية التي تناولت هذا الموضوع تحكمت في أغلبيتها النزعة الاستعمارية التي اعتبرت الطب الاستعماري من حسنات الظاهرة الاستعمارية استفادت منها الشعوب المستعمرة بغض النظر عن الخلفيات والغايات التي تحكمت في الأنشطة الطبية والأعمال المرتبطة بها.

الخلاصة الثالثة :

الحركات التبشيرية والتنصيرية والإرسيالات الدينية المسيحية، بكل فصائلها، حولت الطب من وجهته الإنسانية والنبيلة إلى أداة للتغلغل والتسرب الاستعماري السلمي، وإلى وسيلة للتنصير وإخراج المسلمين المغاربة عن عقيدتهم، واستيلاب هويتهم، والمساس بحريتهم وكرامتهم.

الخلاصة الرابعة :

حاولنا من خلال هذا البحث إلقاء نظرة أفقية وأولية حول الطب الاستعماري، نظرة تعرضت للأطروحات الاستعمارية والوطنية، وللرؤى المحايدة. نظرة باردة وهادئة حول هذه الظاهرة الاستعمارية التي مازالت في حاجة أكيدة إلى مزيد من البحث والدراسة، خصوصا وأن بعض مظاهرها وأساليبها أخذت تظهر وتمارس في مجتمعاتنا المغاربية، بأساليب جديدة أكثر فعالية لمواجهة الصحوة الإسلامية والحد من إنتشارها في المجتمعات الأوروبية والأمريكية بوجه خاص.

بدايات وأشكال التغلغل الاستعماري بالبوادي المغربية "بوادي مدينة وجدة نموذجا"

ذة. مارية دادي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
وجدة

مدخل:

لقد دخل الاستعمار الفرنسي إلى الجزائر منذ سنة 1830 م، وبفضل مجاورة شرق المغرب لهذه الأقاليم المستعمرة وقربه منها، فإن حواضره وبواديه كانت أولى المناطق المغربية التي اكتوت بنار الاستعمار في العصر الحديث، بل امتدت يد المستعمر إلى بواديه سنين طويلة قبل دخوله رسميا إلى حاضرته وجدة.

من الناحية السياسية، فقد تمت السيطرة على مدينة فيكَيكَ التي تعتبر أول مدينة مغربية تم إخضاعها من طرف الفرنسيين بتاريخ 8 يونيو 1903 م، ثم تلتها منطقة عين بني مطهر بحكم موقعها على الحدود المغربية الجزائرية خلال يونيو 1904 م. إلا أن أكبر خسارة أحس بها المغاربة هي احتلال وجدة صبيحة الجمعة 14 صفر 1325 هـ /29 مارس 1907 م، ثم بعدها تم احتلال جبال بني ازناسن سنة 1908 م ثم تلتها باقي المناطق المغربية الأخرى.

فإذا كانت حاضرة المغرب الشرقي قد تم احتلالها رسميا في 29 مارس 1907 م فإن باديتها قد خضعت للاستعمار قبل ذلك التاريخ بسنين طويلة، ونخص ببادية وجدة سهلي اتريفة وأنكاد، ويبين فوانو أهميتهما بقوله: "**إن وجدة .... تقدم مصادر عديدة للثراء رغم أن مستقبلها الزراعي تم حصره في سهلي اتريفة وأنكاد الكبيرين القادرين على إنتاج كمية كبيرة من الحبوب**"[1].

يتميز سهل اتريفة[2] بخصوبة أراضيه وكثرة مياهه، حيث تتفجر غربه وعلى امتداد الضفة اليمنى لملوية، العديد من العيون وسط روافد هذا النهر، حيث يمتلئ وسط هذا السهل بالمياه

(1) **فوانو، وجدة والعمالة**، ترجمة وتعليق :محمد الغرايب، مطبعة شمس، وجدة، 2003، ص. 301.

(2) يضم سهل اتريفة مساحة تفوق 40.000 هكتار من الأراضي الخصبة وعلوها ما بين 100 و300 م، ولقد ساعدت النوعية الجيولوجية للأراضي المجاورة على بناء سد محمد الخامس بطاقة أولية تقدر بـ : 730 متر مكعب.

كذلك، وتحفر فيه آبار لا يتعدى عمقها ثمانية أمتار في المتوسط، يقول فوانو عن هذه العيون: **"إن أشهر عين ببني ازناسن هي عين تافوغالت بأعلى الجبل، وعين زكزل التي تعتبر بحق نهرا صغيرا يخرج من ممر تحت الأرض... ، ثم عين الصفا، وتقع هذه العين بالقدم الشرقي لهذه الكتلة، ولكل هذه العيون صبيب قوي جدا".**[3]

أما سهل أنكَاد[4] هو عبارة عن مجموعة من السهول المحيطة بوجدة -فهو سهل خصب كذلك ويكاد يخلو تماما من النباتات وتصلح أراضيه خاصة لزراعة الحبوب، تتخذ المنابع المسماة عيون سيدي ملوك بعض الأهمية حتى إن الآبار تندر بهذا السهل، وتوجد أيضا عيون بجبال الزكارة[5] وبني بوزكو وبني يعلى جنوب وادي زا، وكذلك عين مستكمر وعين تالوات شمال بني بوزكو وعين كَنفودة[6]، ونشير إلى أن جزء أنكَاد الواقع غرب وجدة يبدو أنه الأكثر غنى، ويمكن أن يسقى في بعض جوانبه.

آثار الاغتصابات الفرنسية لبوادي المغرب الشرقي :

كانت هذه المؤهلات التي تتميز بها بوادي عمالة وجدة من الأسباب الهامة التي أسالت لعاب الفرنسيين وجعلتهم يغتصبون مساحات كبيرة منها ويستحوذون عليها منذ وقت مبكر، وابتداء من النصف الثاني من القرن 19 م، أي قبل استحواذهم رسميا على باقي مدن وبوادي المغرب الأخرى. ونجد آثار هذه الاغتصابات الفرنسية لبوادي المغرب الشرقي عند علي السوسي في كتابه منتهى النقول[7] الذي دون فيه عملية تحديد الحدود الشرقية التي شارك فيها سنة 1884

(3) فوانو، وجدة والعمالة، مرجع سابق، ص. 293 .

(4) أنكَاد، جغرافيا، أطلق هذا الاسم للدلالة على السهول المحيطة بمدينة وجدة، التي تكون الجزء الأوسط من منخفض كبير، يمتد من كَرسيف غربا في اتجاه تلمسان وسيدي بلعباس. تحد هذا السهل من الشمال والجنوب سلسلتان جبليتان، هما بني ازناسن من جهة، والحاشية المرتفعة الشمالية للهضاب العليا المغربية -الوهرانية من جهة ثانية. بينما ينفتح شرقا وغربا على منخفضات مجاورة، تتمثل في منخفض النعيمة -العيون، من جهة، وسهل مغنية من جهة ثانية، دون أن يحجزه عن هذا الأخير أي حاجز طبوغرافي.
أما تاريخيا، فقد ذكر الحجوي أن بسيط أنكَاد هو سهل متسع، يقع بين جبال بني ازناسن شمالا وجبال بني بوزكَو والزكارة وبني يعلى جنوبا، وابتداؤه غربا من قصبة عيون سيدي ملوك إلى وجدة شرقا، وسكان هذا السهل عرب الشجع ولمهايا وأهل أنكَاد وأولاد أحمد بن إبراهيم. والكل عرب رحالة أصحاب الخيام. للمزيد من المعلومات، انظر: محمد الحجوي، **الرحلة الوجدية**، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، رقم : ح 123، ص. 78؛ عبد الله العوينة، **معلمة المغرب**، ص. 859.

(5) جبال الزكارة تقع جنوب وجدة، وهي عبارة عن سلسلة طويلة من الجبال، تتجه عموما من الغرب نحو الشرق، تسكن بها قبائل تحمل نفس الاسم، تبدأ هذه السلسلة عند ضفاف نهر القصوب وتتصل غربا بجبل بني بوزكَو، وتتواصل بعد وادي إيسلي بجبل متسيلة الذي تكون جوانبه المرتفعات الصغيرة المسماة بالحمراء التي توجد مباشرة جنوب وجدة، وأعلى قمة في هذه الجبال لا تتعدى 1100 م. انظر: الآفاق التنموية للمراكز القروية بإقليم وجدة، المندوبية الجهوية الشرقية لوزارة التخطيط، يناير، 1986 م.

(6) تقع عين كَنفودة بين جبال الزكارة ومتسيلة وبني يعلى. انظر: فوانو، وجدة والعمالة، م.س، 292-293.

(7) عملت فرنسا على استغلال انتصارها في معركة إسلي لتقوم بعدد من الاقتطاعات بالأراضي المغربية، فبدأت من جديد قضية الحدود تطفو على الساحة، فأرسل السلطان المولى الحسن الأول بعثة برئاسة أخيه المولى عرفة، لتراقب حدود المغرب الشرقية حتى تتبين كيف يسير الفرنسيون في تطبيق معاهدة طنجة، وسارت البعثة حتى وقفت على الحدود المذكورة في عام 1304 هـ 1884م، وكان من جملة المشاركين في البعثة علي السوسي السملالي الذي دون أعمال الرحلة في كتاب سماه : **منتهى النقول ومشتهى العقول**. منه نسخة بالخزانة العامة، رقم 633 د.

وذلك بقوله : "**وقال أهل تلك البلدة بنو حسان وهم فرق خمسة وقد أخذ لهم النصارى هنا حرث خمسمائة زوجة**[8] " وقال في موضع آخر : "**ثم سر كذلك إلى .... ذرع الدوم، وفي هذا الحد كذلك كلام طويل، وذلك أن الرومي أخذ فيه ما تحرثه خمسمائة زوجة**[9]"، ثم أضاف اغتصابا آخر للفرنسيين بقوله: "**... وترك الرومي عين تاقبلت وانحدر لأسفل البلد وأخذ فيها نحو ساعتين طولا وعرضا، وسبب الأخذ والله أعلم أن تلك الأرض ناعمة جدا، ترى خضرة أشجارها وهي الزبوج كأنها النعناع ..**"[10].

كانت هذه الاقتطاعات من الأراضي المغربية في مرحلة أولى وقبل دخول الاستعمار الفرنسي إلى المغرب، أما في مرحلة ثانية، فقد عمل المعمرون على بذل كافة جهودهم للاستيلاء على بادية وجدة، وذلك بواسطة الاستحواذ واستغلال الظروف المعيشية المزرية التي كان يعيشها أصحاب هذه الأراضي سواء كانوا في البادية أو في المدينة .

العوامل التي ساعدت المعمرين على الاستحواذ على الأراضي ببادية وجدة:

لقد اجتمعت عدّة عوامل اقتصادية واجتماعية وإدارية ساعدت المعمرين الفرنسيين على الاستحواذ على الأراضي ببادية وجدة، من أهمّها :

- كان سكان بادية وجدة وخاصة أهل أنكاد قد ألفوا التعامل مع سكان الجزائر المسلمين بالبيع والشراء والتعامل بالعملة الفرنسية، نستشف ذلك من خلال عقد البيع المؤرخ بـ: 5-12-1288 / 14-02-1872 : والذي يوثق : "**بيع أرض بورية بمزارع أنكاد المسماة الشويحية من طرف عبد الله بن احميدة الدرفوفي للحاج بلخير بن الفقير مبارك بثمن 17 ريالات دورو فرنصوية**"[11] أي 85 فرنكا)؛

- كان الأهالي ببادية وجدة يجهلون تقييم الأرض بالمساحة، وكانت وحدة القياس بالهكتار مجهولة لدى البائعين المغاربة، بحيث لا يعرفون أهمية مزارعهم إلا بمقدار ما يلزمها من الحبوب بالقردية (أي نحو 5 كيلوغرام) أو بالمدّ (10 قرديات)، وفي أحسن الحالات حسب تقدير زوج الحرث الذي كان معتمدا في تقدير الضرائب، فكانوا يبيعون أراضيهم قطعا قطعا، ولذلك فقد

---

(8) علي السوسي، **منتهى النقول**، ص.74. أما زوج الحرث أو السكة فهي المساحة التي يمكن حرثها بواسطة محراث يجره زوج من البهائم خلال فصل الحرث. وهناك تمييز بين زوج الحرث الصغيرة والمتوسطة والكبيرة حسبما إذا كان زوج البهائم الجارة هو الجمال أو البغال أو الحمير، وتقدر المساحة المحروثة بين خمسة وعشرة هكتارات، وقد استعمل المخزن قياس زوج الحرث لتقدير الأعشار خلال القرن التاسع عشر. حول هذا الموضوع، انظر : أحمد التوفيق، إينولتان، ص. 216-217. وقال علي السوسي في منتهى النقول عندما وصل إلى منطقة زوج بغال : "وقيل فيه زوج بغال لأنه قدر ما تحرثه جوج بغال". منتهى النقول، م.س، ص. 73.

(9) نفسه، ص. 75.

(10) نفسه، ص. 74.

(11) عبد الحميد الإسماعلي، وجدة وأنكاد، مطبعة النجاح الجديدة، 1985، ج. 48/3.

كان البائعون من الأهالي لا يتفطنون لعمليات الغش والتمويه والتزوير في تقدير المساحة على وجه التقريب في كثير من الأحيان، بل يكتفون بالثمن الإجمالي بالفرنكات، ويثقون ثقة عمياء في الأوروبي متى قبضوا منه عربونا يمثل ثلث أو نصف الثمن المتفق عليه فيسلموه أرضهم، وفي الغالب لا يتوصل البائع بباقي المبلغ المتفق عليه؛

– كما أن رسوم التمليك التي كانت بحوزة المغاربة لم تحدد مساحة الأرض في غالب الأحيان، ومما شجع التزوير والتحايل والاستحواذ على الأرض من طرف المعمرين غموض معالم حدود الملكيات، فكانت تلك المعالم تتمثل في تضاريس طبيعية، كدية أو وادي، أو في طريق أو ضريح. ورغم علات هذا التحديد فقد حصّن – إلى حدّ ما – حدود الملكية لأصحابها، لأن كثيرا من ذوي الحقوق لم تكن بحوزتهم رسوم الملكية، وقد دفعت المضاربة العقارية هؤلاء إلى إقامة تلك الرسوم لإثبات حقوقهم مما شجع بدوره على التزوير؛

– ومن الأسباب كذلك، التي شجعت الفرنسيين على اقتناء مساحات شاسعة من الأراضي خصوصا بسهل اتريفة، انخفاض الأسعار بالمقارنة مع الأسعار المعمول بها بغرب الجزائر، ففي بداية الاحتلال كان الهكتار الواحد بسهل اتريفة يباع بعشرة إلى خمسة عشر فرنك فرنسي، وبعد سنة واحدة أي 1908 صار يباع بثمانين إلى مائة فرنك للهكتار، وفي سنة 1911 تراوح سعر الهكتار بين مائة ومائة وخمسين فرنكا فرنسيا، هذا في الوقت الذي كان فيه الهكتار الواحد بغرب الجزائر يباع بألف إلى ألف وخمسمائة فرنك فرنسي. وقد فسرت المصادر الفرنسية هذه الظاهرة بكون الأراضي المعروضة للبيع بالبوادي المغربية بحاجة إلى أعمال استصلاحية كبيرة. غير أن الأصح هو أن أصحاب هذه الأراضي كانوا لا يدركون آنذاك قيمتها الحقيقية، حيث كانت وسائل الاستغلال بدائية فضلا عن الحاجة وقلة ذات اليد التي كانت في كثير من المرات وراء بيعهم لأراضيهم، وهو ما يؤكده لنا هذا النص الذي يوثق بيع أرض بسهل آنكاد : **"فالزوجتان باعتا عن أنفسهما وأولادهما الذين في حضانتهما ... جميع البلاد البورية المذكورة .. لكونهم في غاية الاحتياج والفاقة لما وقع في البلاد من القحط وغلاء الحبوب وارتفاع الأسعار"**[12]؛

- كذلك من الوسائل والحيل التي استخدمها المعمرون للاستحواذ على أكبر مساحة من الأراضي ببادية وجدة، هي أنه كان من المعمرين من يتفق مع وجهاء فرقة ما من قبيلة معينة ليحصل على قطعة كبيرة من أرض صالحة للرعي ولا تحرث إلا في السنوات الممطرة، ثم يعمل على التهام الملكية الخاصة المجاورة لأرضه شيئا فشيئا، فتراه يترقب عثرات الفلاحين وعوزهم أو وفاة معيل العائلة، ثم بعد ذلك يتمكن بسهولة من التهام الأراضي الفردية التي يفتتها نظام

(12) وثيقة عدلية مؤرخة بتاريخ 1907/3/11 م، انظرها عند : عبد الحميد الإسماعيلي، وجدة وأنكاد، مرجع سابق، ج.245/1.

الإرث أو التي لم تستغل نظرا لهجرة صاحبها إلى المدينة، وهكذا يتمكن من توسيع رقعته على حساب أراضيهم. وكمثال على ذلك، اليهودي مخلوف طبول الفرنسي الجنسية الذي حضر إلى وجدة من مغنية في سنة 1913 م ووثق التعارف مع أعيان قبيلة أولاد أحمد الأنكاديين واشترى منهم 154 هكتار بـ: 11.500 فرنك، أي بأقل من 75 فرنكا للهكتار الواحد بموجب عقود للقاضي بويكر بوشنتوف السلاوي قاضي وجدة ونواحيها؛

- كما عمل المعمرون كذلك على استغلال العصبية القبلية التي كانت متأججة بين بعض القبائل ببادية وجدة، وفي هذا الصدد قامت الشركات الكبرى التي أسست بأنكاد أيام الحماية وعددها خمسة - مقابل 17 شركة بسهل اتريفة - بقضم الأراضي الجماعية على قدر نفوذها في الأوساط السياسية ومعرفتها للأوضاع السائدة في البوادي قبل مجيئها، فكانت إذا سمعت بنزاع قديم بين قبيلتين لا تألو جهدا للحصول على موطئ قدم، ثم تعمل على استغلال العقارات بالآلات العصرية وبسواعد الأهالي.

وكمثال على ذلك، نجد أن أكبر المعمرين ببادية وجدة هو Lucien Borgeaud (الذي ازداد بمدينة الجزائر سنة 1895) م قد اشترى أكثر من مائة قطعة، مجمل مساحتها 3 آلاف هكتار، نظرا لاستغلال الخصومات التي كانت قائمة بين بعض قبائل آنكاد، مثل النزاع الذي كان قائما بين الدرافيف وبني موسى[13]. ورغم القضايا التي رفعت في محكمة وجدة ضده من طرف بعض السكان، ورغم تداول المحكمة في هذه القضية لمدة سنتين، فإنها أخيرا أصدرت حكما لصالح المعمر بورجو (Borgeaud) في 1921/08/25[14].

طريقة تفويت الأراضي المغربية للمعمّرين الفرنسيين:

بما أن عملية البيع بين المغاربة والمعمرين الفرنسيين كانت تعوقها بعض المشاكل القانونية[15] - وحتى تكون عملية البيع قانونية - فقد أشارت السلطات الفرنسية على المعمرين الفرنسيين بشكل شبه رسمي، بتسخير وسطاء جزائريين، بهدف اقتناء الأراضي والعقارات بعمالة وجدة... حيث تقرر أن يقتني الوسيط الجزائري العقار بعقد شرعي مصادق عليه من طرف قاضي وجدة، ثم يفوّت العقار المذكور للمعمر الفرنسي بواسطة عقد عرفي خاص،[16] وقد ضل اللجوء إلى الوسيط الجزائري هو الحل المعتمد في نقل حقوق الملكية للفرنسيين بعمالة وجدة على وجه

---

(13) الإسماعيلي، تاريخ وجدة وأنكاد، م.س، ج/3، ص.55.

(14) SMAILI, . Les relations des français..., p. 208.

(15) جاء في الفصل 60 من ميثاق الجزيرة الخضراء أنه "يجوز للأجانب اقتناء العقارات في مجموع تراب الإيالة الشريفة طبقا للحق المخول إياهم بموجب اتفاقية مدريد...".

(16) وقد اعترف مفوض الحكومة الفرنسية بوجدة بأن فيها إجحافا للمعمرين الفرنسيين بالمقارنة مع الأوروبيين الذين استقروا بالمراسي المفتوحة للتجارة، حيث أمكنهم اقتناء العقارات دون حصولهم على ترخيص من السلطان.

الخصوص، حيث كان بإمكان الجزائري اقتناء الأرض بعمالة وجدة بصفته مسلما، وفي الوقت ذاته جاز له تفويت الأرض المذكورة لمعمر فرنسي باعتباره من الرعايا الفرنسيين الخاضعين للقضاء القنصلي الفرنسي بالمغرب، وطبقا لذلك، ينقل حق الملكية للمعمر الفرنسي بواسطة عقد عرفي خاص أو بعقد عدلي، وهو إجراء مقبول ومعترف به من طرف مفوضية وجدة، باعتبار الأشخاص المعنيين رعايا فرنسيين، مما أعطى بعض الضمانات للمعمرين الراغبين في اقتناء الأراضي ببوادي وجدة وشجعهم على التمادي في جشعهم[17].

نتائج سياسة المعمرين في الاستحواذ على الأراضي ببوادي وجدة :

رغم تعقيدات إجراءات البيع وما اكتنفها من تشكك في شرعية عقود نقل الملكية، فقد اقتنى الفرنسيون مساحات شاسعة من الأراضي ببوادي وجدة خصوصا بسهل اتريفة، وقد بلغت مجموع الأراضي التي فوتت للمعمرين بسهل اتريفة سنة **1909**م سبعة آلاف هكتار، وبعد سنة تملك الفرنسيون **15 ألف** هكتار، من مجموع **30 ألف** هكتار صالحة للزراعة بسهل اتريفة (أي ما يعادل النصف)، ناهيك عن الأراضي التي اشتروها بسهل أنكَاد. وللإشارة فإن جل هؤلاء المعمرين كانوا من غرب الجزائر.

وقد بلغت مساحة الأراضي التي استحوذ عليها الفرنسيون بالمغرب الشرقي سنة 1917 م ما مجموعه **30.000 هكتار**. واستعملوا في ذلك جميع ممارسات التعسف والتحايل والتزوير في تفويت الأراضي، وقد بررت السلطات الفرنسية كل ذلك بمنطق الاستعمار، وتعاضد معها قاضي وجدة الحاج العربي بلحبيب المشرفي الذي كانت تباع الأملاك على يده للفرنسيين أو لشركات فرنسية، فكان يماطل في دفع ثمن البيع لمستحقيه، وكثيرا ما بيعت أملاك الغير على يده برسوم باطلة، وقد تواطأ معه قاضي بركان إدريس اليعقوبي.[18]

وقد تذمر سكان بوادي عمالة وجدة من استيلاء المعمرين على جل أراضيهم باستخدام جميع وسائل الظلم والتزوير، ونجد صدى ذلك في رسالة تظلم رفعها أحد الوطنيين بمنطقة وجدة إلى مدير جريدة السعادة بطنجة بتاريخ 23 غشت 1909 بهدف النشر جاء فيها: "**... أما ولاة هذا الوطن وقضاته... فما هناك وال سوى الباشا، ولا قاض سوى قاضي وجدة، ولا أمين سوى أمينها، فقد تعاضدوا وتكاثفوا على شيء واحد هو... منفعتهم الخاصة، فأهلكوا في سبيلها العامة والخاصة، ...ظلموا ظلم الوحوش وتجاهروا بما هو مسمى بالبقشيش..... فقد اقتدى بقاضي وجدة وعاملها ولاة البادية، وضاعت جميع الحقوق ولم يبق إلا الظلم والعقوق... ، فقد تملك المعمرون جميع سهل طريفة الواسع الأكناف الكثير المنابع والغابات والأرياف، وجميع سهل**

(17) برحاب عكاشة، **الدولة المغربية ومشكلة الأطراف**، ص. 209-210.

(18) عكاشة، نفسه، ص. 214-215.

عجرود وريفه، وجبل بني يزناسن من الوجه البحري وبعض الوجه الأنكادي، ولا زال الخرق يزداد اتساعا ..."[19]. وقد وقع رسالته بـ : "عن إذن عامة الوطن - وطني أمّنه الله" . إلا أن هذه الرسالة لم يكتب لها أن تنشر على أعمدة جريدة السعادة، إذ عملت الرقابة الفرنسية من خلال وزيرها المفوض بطنجة على منع نشرها، وسارع هذا الأخير إلى طلب توضيحات عن حقيقة التهم المثبتة في تظلم أهل وجدة، فاعترف المفوض بأنه وقعت بعض التجاوزات واستغلال النفوذ من طرف المخزن المحلي، وحمّل عامل وجدة بن كروم مسؤولية ما وقع من تعسف في السلطة، حيث كان مكلفا بحل كل النزاعات التي تقع بين المغاربة. لكن نشير هنا إلى أن الأحكام الصادرة عن عامل وجدة كانت مراقبة من طرف سلطات الاحتلال. ويستفاد من التظلم وما أعقبه من ردود، أن السلطات الفرنسية بوجدة قد أطلقت يد رجال المخزن ليتحكموا في رقاب إخوانهم ما دام ذلك يخدم مصالح الفرنسيين ويمكنهم من الاستحواذ على أكبر قدر من الأراضي والعقارات، وهذه إحدى الغايات من الحفاظ على سلطة شكلية للمخزن المحلي[20].

وقد أكد الحجوي الذي عاين الوقائع حينها تورط قاضي وجدة وعدوله في تفويت الأراضي للفرنسيين ببوادي وجدة بطرق غير شرعية وسلب أموال الرعية وممتلكاتها "**وبيعها للمعمرين ببخس الثمن، مما لا يقدر أحد أن يصدقه من المظالم الفاحشة التي دام هؤلاء الظلمة عليها مدة خمس سنين، انتزعوا فيها جل الأملاك من بني يزناسن وطريفة ونواحي وجدة والعيون وبيعها للمعمرين، وكذا أملاك الأحباس، وتداخل معهم في ذلك أمين الديوانة محمد برادة وأحمد بن كروم عامل البلد**".[21]

ويبدو أن انتزاع أجود الأراضي من سكان بادية وجدة قد ترتب عليه تردّ في حياتهم المعيشية، إلا أن آثار ذلك لم تظهر في الحين بسبب توفر فرص العمل في استصلاح الأراضي والاستغلال الزراعي في بداية عهد الاحتلال. وقد رأى ليوطي أن منطق الاستعمار يفرض على الحكومة الفرنسية أن تمنح للمعمرين وضعا متميزا في المغرب، بالنظر إلى تحدّيهم كل المخاطر وجلبهم رؤوس الأموال والوسائل الحديثة في العمل، لتحقيق الرخاء والتنمية الاقتصادية. أما المخزن المغربي فقد كان غائبا، وهو ما يفسر احتكار القرار من طرف سلطات الاحتلال، حيث لم يعد الحضور المخزني إلا أمرا شكليا بعمالة وجدة.

---

(19) عكاشة برحاب، م، س، ص. 216.

(20) قال موجان في هذا الصدد: "العامل هو الإداري الحقيقي، ويدعى أيضا الباشا، فبين يديه تتمركز كل السلطات تقريبا ، ينظر في الشكايات، يراقب الشرطة، ويتحكم في العدل... هو المسؤول عن النظام والإدارة أمام السلطات،.. فهو القائد الأعلى للمحلة التي يتألف منها جيش وجدة ويخرج على رأسهم للقتال ". انظر:
Mougin, (capitaine), **Oujda**, historique, organisation, commerce, renseignements coloniaux, n° 8, p. 221.

(21) الحجوي محمد بن الحسن، **تقاييد مخزنية**، م.خ.ع.الرباط، رقم 128 ، ص.66-67.

وقد اشتهر من الجزائريين محمد بن بومدين بن المير علي التلمساني الذي مهد السبل للشركة الفلاحية والعقارية والتجارية للمغرب التي تأسست بوجدة في 1910 للأخوين BESSON واليهودي الفرنسي مخلوف الطبول ولآخرين، وكان الأوروبيون يؤكدون تلك الصفقات بوثيقة رسمية تمكنهم من تسجيلها بالمحافظة العقارية، تفاديا لكل منازعة أو معارضة صادرة سواء عن بعض الأفراد أو عن جماعة تمثل عدة عشائر قبلية[22].

وقد جاء الظهير الصادر في 1919/04/27م ليطلق يد المعمر بواسطة مجلس الوصاية، الذي كان يضم أربعة موظفين سامين من الإقامة العامة: مستشار الحكومة الشريفة، المدير العام للفلاحة والتجارة والاستعمار، مدير الشؤون الأهلية، رئيس مصلحة المراقبة المدنية، وكذلك موظفين مسلمين تابعين للحكومة المخزنية. وبذلك روعيت مصالح الأجانب بالدرجة الأولى وعلى نطاق أوسع من ذي قبل، إذ منحت مئات الهكتارات بقرار إداري للمزارعين بتسهيلات كبيرة، وفي شكل قطع للتعمير تخضع لشروط تقنية وعقارية معينة بدءا من السهول الغربية في 1916، إذ لم تطبق هذه السياسة بأنكاد إلا في 1927م ولفائدة خمسة مزارعين فقط، وزعت عليهم 2.200 هكتار شمالي مدينة وجدة في الكيلومتر 15 بالمنطقة المعروفة بالعالب[23].

خلاصة:

لقد حاولت الحكومة المخزنية معاكسة التيار الاستعماري قدر المستطاع، وذلك بسن قوانين لرسم مواصفات العقارات الجماعية لصيانتها من عبث العابثين وتنظيم استثمارها بالشركة أو بالكراء، مما عمل على الحد من اكتساح المعمّرين لسهول وجدة وخاصة منها سهل أنكاد، كما أن تماسك بعض العشائر بعضها ببعض والتفافها حول رؤسائها وذوي الحنكة من رجالاتها، حال - نسبيا - دون تعرض أصحاب البادية كلهم للتشرد والضياع، وحدّ من نجاح سياسة الاستيطان الأوروبي وانتشاره على نطاق أوسع.

---

(22) الإسماعيلي، تاريخ وجدة وأنكاد، م.س، ج. 3، ص. 49.

(23) SMAILI moulay abdelhamid. Les relations des français et des marocains de l'Oriental (1900-1925) Thèse 3è Cycle, 1980. p. 196 - 197.

المقاومة ببادية تافيلالت، 1900-1934

ذ. محمد بوكبوط
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
سايس، فاس

لازالت أحداث الجهاد الذي خاضته كثير من بوادي المغرب وجباله وصحاريه في حاجة إلى اهتمام المؤرخين بحثا وتعريفا، كخطوة لإعادة الاعتبار لصفحات مغمورة من بطولات مغاربة تلك الجهات وتضحياتهم، تستحق أن تحتل المكانة اللائقة بها في سجل مفاخر التاريخ الوطني.

وفي هذا المقام، سألقي بعض الضوء على جهاد قبائل وأهل تافيلالت ونواحيها من التخوم الشرقية إلى جبال الأطلس الشامخ، مع التركيز على إبراز أهم مميزات المقاومات التي أبداها مجاهدو تلك الربوع، دون ادعاء إيفاء الموضوع حقه.

ولعل أول ما يسترعي الانتباه لدى تناول أحداث جهاد التخوم الصحراوية هيمنة الطابع الديني الصوفي على زعاماتها وتعبئتها، فقد لعب العلماء والمتصوفة أدوارا طلائعية في استنهاض الهمم والتحريض والحث على الجهاد منذ أواخر القرن التاسع عشر، حين بدأت تتضح الأطماع الفرنسية في الامتدادات الصحراوية، فالتفّت حولهم القبائل الأمازيغية والعربية التي لم تتردد في الالتحاق بدعوة أي شريف أو عالم أو متصوف رفع راية الجهاد، ملتزمة بالفتاوى الحاضة على الجهاد والهجرة في سبيل الله إلى آخر نفس ومهما كلف ذلك من تضحيات.[1]

ويأتي في مقدمة هؤلاء العلماء والمتصوفة الشيخ سيدي محمد العربي بن الهاشمي المدغري، سليل الأسرة العلوية وشيخ زاوية كاوز الدرقاوية بمدغرة، يصفه مؤرخ جهاد الأطلس أحمد بن قاسم المنصوري بأنه **"الرجل الصالح الناصح المخلص العابد الزاهد الداعي إلى ربه بقلبه وقالبه... وكان من التواضع وعدم الإستشراف للرياسة بالمكانة التي يغبط عليها... فقد كان هذا الشريف كله غيرة وشعلة نار في وجوه المستعمر وهو من عباد الله الصالحين".**[2]

(1) لمزيد من التفاصيل يرجع إلى كتابنا، مقاومة الهوامش الصحراوية للاستعمار(1880-1938)، دار أبي رقراق، الرباط، 2005، ص. 9 وما بعدها.
(2) أحمد بن قاسم المنصوري، كباء العنبر من عظماء زايان وأطلس البربر، تحقيق محمد بن لحسن، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين، الرباط، 2004، ص. 197-198.

فأمام اغتصاب فرنسا لتخوم المغرب الشرقية انطلاقا من مستعمرتها الجزائر،"**كان هذا الشريف ممن اكتوى بنار تلك الحوادث للقرب من الحدود الجزائرية، لأجل ذلك كان يكاتب المعتقدين فيه من القبائل الصحراوية والبربرية، مكاتب كلها حثٌ وتحريض على الدفاع عن حوزة الإسلام وحماية الوطن**".[3]

ونظرا لمكانة الرجل الدينية، وجدت رسائله ودعواته صدى كبيرا لدى قبائل التخوم، مما أثار قلق الأوساط الإستعمارية وانزعاج المخزن، كما تفيد وثيقة مخزنية جاء فيها : "**وبالجملة فإن الدرقاوي كان قد كتب لقبائل هذه الإيالة وخصوصا لذوي التعصب منها كأهل سوس والصحراء وقبائل البربر كبني مكيلد ونحوهم بالتحريض على الجهاد والنهوض إليه حسبما في مكاتيبه لهم بذلك الموجه لكم بعضها سابقا، فأصدر لهم مولانا نصره الله أمره الشريف بعدم الإلتفات لذلك، وعرفهم بأنه لا زال مع دولتكم على ما هو عليه معها من المهادنة، وبأن كلام المذكور في ذلك حتى لقبائل الطاعة المنقادين الذين يعلم منهم دام علاه أنهم لا يلتفتون لكلام الدرقاوي، احتياطا وحرصا على الهدنة، فامتثلوا ووقف جميعهم عند حده ولزموا السكينة ولم يلتفتوا لكلام الدرقاوي**"[4]، بل أصدر السلطان مولاي الحسن أوامره للشيخ بالاشتغال بما يعنيه والكف عن تحريض القبائل[5]. لكن تحركات سيدي محمد العربي المدغري لم تذهب سدى، إذ تصدت قبائل التخوم الشرقية للتغلغل الفرنسي، فشن بنو كيل وآيت بويشاون وآيت خباش وأولاد جرير وذوي منيع أكثر من مائة هجوم على القوات الفرنسية المنتشرة في واحات تيميمون وتيديكلت وتوات فيما بين شهري ماي وشتنبر 1900[6]، وظل درقاويو الجنوب الشرقي للبلاد أوفياء لدعواته كما سيتضح.

ومن هؤلاء تلميذه أبو العباس أحمد بن الهاشمي بن صالح الغالبي الإدريسي الحسني الفيلالي المتوفى عام 1910/9/1327، مؤلف كتاب سماه "**تحفة الراغب في السعادة في الترغيب لطلب الشهادة، وآداب الغزو وحكمه وفضل الشجاعة**"[7]، يدخل في إطار المجهود الديني التحريضي الذي بذله مريدو وأتباع الشيخ محمد العربي. ومن الزعماء الصوفيين المستنفرين لقبائل تافيلالت ونواحيها شريف علوي آخر هو مولاي المصطفى بن الحنفي الحسني العلوي المحمدي شيخ زاوية بالرتب شمالي تافيلالت، وابنه بأسيدي بن مولاي المصطفى الذين كانوا ضمن حركات المجاهدين في العديد من الوقائع مثل بودنيب[8].

(3) المنصوري، مصدر سابق .
(4) عكاشة برحاب، فيكيك باب المغرب، مراسلات مختارة مغربية وفرنسية، الرباط، 2003، ص، 18.
(5) المنصوري، مصدر سابق، ص. 14.
(6) Sayagh Said, La France et les frontières maroco- algériennes 1873-1902, ed. CNRS, Paris, 1986, p. 83.
(7) توجد نسخة مصورة عنه في الخزانة العامة بالرباط على شريط ميكروفيلم رقم 475.
(8) محمد بوكبوط، مرجع سابق، ص. 14.

وبديهي أن استحضار الزعامات الصوفية لمجاهدي التخوم الشرقية في بداية القرن العشرين لن يستقيم دون ذكر مجاهد قلما يذكر، يتعلق الأمر بمولاي حْمَادْ وْلَحْسَنْ السبعي السغروشني نسبة لزاوية دويرة السبع بقبيلة آيت سغروشن الأمازيغية، الذي نذر نفسه للحض والتحريض على الجهاد متجولا كما قال عنه المنصوري **"يصرخ في القبائل البربرية من إخوانه آيت سغروشن وآيت يزدك وآيت مرغاد وآيت خبَّاش وآيت عطة وآيت يوسي وبعض قبائل الصحراء كأولاد جرير وأولاد الناصر وبعض ذوي منيع...يحث ويحرض بخطبه حتى التأمت عليه "**[9] جموع غفيرة من مجاهدي القبائل المذكورة وغيرها، فانتقل من التحريض والدعوة إلى زعامة المقاومة بالفعل، إذ كان على رأس جيش المجاهدين في معركتي المنقوب وبودنيب اللتين وقعتا في ربيع وصيف 1908.

ومما تجدر الإشارة إليه بصدد أدوار العلماء والشرفاء والفقهاء والمتصوفة في الجهاد، ويستوجب في اعتقادنا إعادة النظر فيما تواتر في الدراسات التاريخية عن كون المقاومات المغربية منعزلة ولم تعمل زعاماتها على التنسيق، ما تكشف عنه مراسلات جرت بين العديد من الشخصيات الدينية في هذا المجال الواسع، أي الهوامش الصحراوية الشرقية والأطلس الكبير الشرقي، فقد بعث الشيخ محمد العربي المدغري رسائل إلى شتى جهات المغرب منذ أواخر القرن التاسع عشر ينبه فيها إلى مخاطر وجود الفرنسيين في الجزائر، كما كتب مولاي مصطفى بن الحنفي مستنفرا قبيلة آيت مكَيلد بعمق الأطلس المتوسط عقب احتلال واحات توات سنة 1900.

ويورد أحمد بن قاسم المنصوري أن سيدي محمد بن الحاج التالتفراوتي الذي حلاه "بشيخ الجماعة على الإطلاق في القبائل البربرية"، أذاع رسالة بين قبائل جبال الأطلس الكبير الشرقي وهوامشها الصحراوية كلها تحريض على الجهاد وتذكير المؤمنين بواجب النفير أمام مداهمة العدو لديارهم[10]. وأورد نفس المصدر رسالة أخرى للتالتفراوتي موجهة للمجاهدين **"بالأطلس الكبير آيت يفلمان وهم آيت مرغاد وآيت حديدو وأهل غريس وفركلة وأهل تاديغوست، وآيت عطة ومن انضاف إليهم من الشرفاء والمرابطين والأحرار، وقبائل سجلماسة من شرفاء وبني امحمد وأهل الغرفة وآيت خباش وآيت إسفول وأهل السُّفالاتْ والسِّيفَة وأهل تِنجْدَتْ وغيرهم"**[11]، كتبها جوابا على رسالة تلقاها من بّاعْلي التازاريني خليفة وقائد جيوش زعيم مقاومة تافيلالت محمد بن بلقاسم النكادي، يطلب فيها من الشيخ **"الإغاثة والمعاونة على نصرة الدين، لأنكم من أهل الفضل والكرم، ولا نقبل منكم عذرا، وقد كنا ننظر إليكم كمثل هلال العيد لما علمتم احتياجنا إليكم، لأن الدنيا بالمعونة، وأقدم مع آل أسف ملول"**[12]، وذلك خلال حملات باعلي على تُودْغا وفَرْكْلاَ سنة 1919 التي اصطدم فيها بنفوذ الكَلاوي المسنود فرنسيا.

---

(9) المنصوري، مصدر سابق، ص. 204.

(10) نفسه.

(11) المنصوري، نفسه.

(12) نفسه.

تؤكد هذه المراسلات وجود اتصالات بين قيادات وزعامات المجاهدين في كل من الأطلس والتخوم الصحراوية الشرقية، ساهمت إلى حد بعيد في استنهاض الهمم وتعبئة طاقات القبائل لمواجهة التحدي الاستعماري. وإذا كانت هذه الطاقات لم تتصهر كلها في بوثقة واحدة وتخضع لقيادة موحدة، فإنها مع ذلك لم تكن منفصلة ومنعزلة بالشكل الذي توحي به العديد من الدراسات، وحسْبَ الشرفاء والفقهاء والمتصوفة الذين تناولنا جانبا من إسهاماتهم أنهم نجحوا في خلق حالة من الإستنفار في صفوف مجموعات قبلية اعتنقت دعواتهم الجهادية، فانخرطت في مقاومة عنيدة وشرسة نالت إعجاب أعدائها.

بعد هذا البعد الديني الصوفي الذي كان محرك جهاد قبائل الامتدادات الصحراوية والجبلية، نود أن نثير طبيعة هذا الجهاد من ناحية الخطط الحربية، ومدى استفادة المجاهدين من المعارك التي خاضوها ضد قوات الغزو.

فمعلوم أن أول مظهر اتخذه جهاد القبائل هو تنظيم حَرْكات جهادية من أبناء قبائل مختلفة استجابت لنداءات المتصوفة والعلماء المشار إليهم سالفا، مما يبرز تلاحم قبائل التخوم والجبال وتجاوز أغلبها لعداواتها التقليدية وسخائمها أمام التحدي المشترك. يتضح ذلك في المعارك التي درات بين المجاهدين والقوات الفرنسية في واد كير، فقد سبق أن مولاي حماد ولحسن السبعي السغروشني قام يصرخ في قبائل آيت سغروشن وآيت إزدك وآيت مرغاد وآيت خباش وآيت عطا وآيت يوسي وأولاد جرير وأولاد الناصر وذوي منيع، **"يحث ويحرض بخطبه حتى التأمت عليه هذه الجموع الغفيرة التي قدروها بزهاء خمسين ألف مقاتل**[13]**، فقصد بهم ناحية المنكوب الذي يبعد عن مركز بودنيب بنحو 138 كلم، وكان اجتماعهم أولا في بدنيب، ثم تقدموا لعين الشعير... ولما تكاملت العدة والعدد تحركوا نحو المنكوب حيث الجيش الفرنسي، فصبّحوه وحمي وطيس المعركة، وتقدموا نحو المعسكر مهاجمين وجل المجاهدين رجالة وفيهم قليل من الخيل، ورئيسهم مولاي أحمد السبعي على بغلة قصيرة وهو أيضا قصير يصيح: دونكم دونكم أبواب الجنة مفتوحة"**[14].

رغم شجاعة المجاهدين منيت حرْكتهم بالهزيمة، **"إذ جعلت المدفعية تحصدهم حصد الهشيم، فكانت مصيبة عظمى وبلية كبرى على المسلمين"** على حد تعبير المنصوري[15]، تراجعت بعدها فلول الحرْكة إلى بودنيب حيث باغتتها القوات الفرنسية، فظهر واضحا مدى بساطة خطط المجاهدين وعدم استفادتهم من المعركة السابقة، فعلى الرغم من أن **"التجربة الأولى(دلتهم)**

(13) أكيد أن الرقم مبالغ فيه جدا.

(14) المنصوري، مصدر سابق، ص.ص. 204-205.

(15) نفسه.

على أنه **ليس من السهل مقاومته تهورا واسترسالا بدون تفكير**"[16]، تكشف رواية معاصرة أن أحد فرسان قصر تالّزّيمّتْ سارع إلى إنذارهم بأن الفرنسيين سيهاجمونهم في اليوم الموالي، مشيرا عليهم بالتحصن في جبل تازّكّارْتْ، لكنهم استهانوا بالأمر ودارت المعارك ببودنيب وناحيتها، **"وقد حكى لي الحاضرون للمعركة - يقول المنصوري - أن المجاهدين كانوا يتساقطون تساقط الفراش على النار في أطراف المدينة وداخلها وعلى أسوارها... والمجاهدون تطير أشلاؤهم وتتفتت أمعاؤهم وتطوّح القنابل برؤوسهم، وهم ثابتون لا تسمع منهم إلا لا إله إلا الله، اللهم صل عليك يا رسول الله بأصوات مرتفعة"**[17].

من المعارك الأخرى التي سار فيها المجاهدون على نفس النهج، أي الإصطدام بالقوات الفرنسية في معارك تقليدية، معركة مسكي المشهورة بالرّجَلْ التي دارت في 15 يناير1919، حيث احتشد مجاهدون من آيت عطا وآيت يافلمان وآيت حمو وعرب الصباح والشرفاء وغيرهم، موثوقي الأرجل عهدا منهم على الصمود، فأمطرتهم المدفيعة الفرنسية مرة أخرى بالقذائف مسفرة عن خسائر فادحة في صفوفهم.

عقب هذه الضربات الموجعة التي تلقتها الحركات الجهادية، وسيطرة الفرنسيين الفعلية على مجالات واسعة في الحمادات والواحات المحيطة بتافيلالت، وإخضاع قبائل كثيرة وانفراط عقد المجاهدين، عول مجاهدو القبائل التي لم تخضع بعد على تكتيك مغاير، دوّخ قيادة الجيوش الإستعمارية لمدة عقود من الزمن، وذلك بالإعراض عن الحرْكات الحاشدة والاستعاضة عنها بعصابات قليلة العدد سريعة الحركة، المشهورة محليا بإيجياشن (les Djiouchs في الكتابات الفرنسية). ومن القبائل التي تبنت وبرعت في هذا التكتيك آيت حمو وآيت خباش[18].

فآيت حمو قبيلة من اتحادية آيت سغروشن التي أبلت البلاء الحسن في الجهاد، إذ لما سيطر الفرنسيون على بلادهم تالّسّينْت في أعالي واد كير، هاجروا مجاهدين إلى كتلة دايّتْ شمالي شرق قصر السوق ثم إلى تارْدا جنوبيها، ومنها إلى بلاد آيت خباش شرقي تافيلالت، حيث تقاطع مصيرهم وجهادهم مع آيت خباش وبني امحمد وذوي منيع وأولاد جرير وأولاد بوعنان.

وتعترف تقارير القوات الفرنسية بخطورة الوضع المترتب على الضربات المباغتة للمجاهدين على طول الإمتدادات الصحراوية الفاصلة بين كير والساورة وتافيلالت، حيث زرع مجاهدو آيت خباش وأولاد جرير البلبلة والفزع في صفوف القوات الفرنسية بالساورة والداورة، وأصبحت قوافل تموينها أهدافا سهلة قلما تفلت من كمائنهم المتحركة[19]. ومن العمليات الجريئة التي اتخذ

(16) نفسه، ص. 205.

(17) نفسه.

(18) محمد بوكبوط، مرجع سابق، ص. 53 وما بعدها.

(19) Augieras, Chronique de l'Ouest saharien (1900-1930), renseignements coloniaux, n°4, 1930, p. 205.

فيها المجاهدون تكتيك حرب العصابات عقب خسائر حرَكتهم التقليدية في معارك تيميمون سنة 1901، عملية حاسي أوشّن في دجنبر 1904 التي تسللت فيها مجموعة جهادية مكونة من 60 مهاريا من شعانبة بوعمامة و70 راجلا من آيت خباش، و"**كلهم من عتاة النُّهاب المسلحين ببنادق سريعة الطلقات**" على حد تعبير أوجييراس، تسللت إلى العرق الكبير شمال تاغيت حيث انقضت في حاسي أوشن على دورية تابعة للفيلق الصحراوي لتيكورارين، وبعد يومين تعرضت قافلة ضخمة آتية من جيريفيل لهجوم أسفر عن مقتل 40 من أفرادها وغنم المجاهدون 1000 جمل[20] أسفرت هذه الضربة الموجعة عن استنفار كل قوات بني ونيف وبشار وتاغيت وبني عباس وتيميمون، وقامت خلال عشرين يوما بتمشيط كل المناطق بحثا عن المجاهدين، الذين برعوا في الإفلات بفضل سرعة حركتهم ومعرفتهم الدقيقة بالأرض.

ويلخص تقرير ضابط فرنسي الوضع سنة 1912 بقوله: "**في سنة 1912 كان قد مر أزيد من عشر سنوات على الإحتلال الفرنسي في المناطق الصحراوية، وباستثناء التخوم المغربية الجزائرية المضطربة باستمرار جراء الجوار مع تافيلالت، ومنطقة تابلبالت باعتبارها منطقة متقدمة نحو الغرب، فإن درجة الأمن واضحة من عدد الجيوش العاملة في وادي الساورة أو جواره المباشر.**"[21] واضح أن استثناء المنطقتين يعزى أساسا إلى صمود مقاومة آيت خباش وبني امحمد وأولاد جرير.

لم تفتر مقاومة هذه القبائل في السنوات التالية، بل اشتدت ضرباتها ضد القوات الفرنسية ومراكزها وخطوط تموينها، وهذا ضابط آخر يكتب: "**في منطقة التخوم الشرقية (شرق تافيلالت) تسود حالة عامة من انعدام الأمن، وخلال سنتي 1927-1928 حصلت 100 مجابهة بين المنشقين وقواتنا المكلفة بأعمال الدوريات، وكانت هذه العمليات تتم لصالح المهاجمين في غالب الأحيان، مما زاد من رفع معنوياتهم... وفي هذه اللحظة (مارس 1929) ، يمكن القول إن العمليات الهجومية تضاعفت ووصلت إلى المناطق التي تمت تهدئتها... وقد بلغت خسائرنا 222 قتيلا و154جريحا، أي أن الخسائر وصلت إلى 376 حالة في مدة خمسة أشهر**"[22].

هذا الوضع الحرج هو الذي جعل الجنرال جيرو قائد جيش التخوم المغربية الجزائرية يلح في المطالبة باحتلال واحة تافيلالت لوضع حد للنزيف وإلغاء بؤرة المقاومة في تافيلالت ونواحيها، وهو ما تم في يناير1932، لتبدأ صفحة أخرى من جهاد قبائل تلك النواحي، تميزت بظاهرة أخرى تستحق الوقوف عندها.

(20) Augieras, art. cit. p. 206.

(21) Augieras, art. cit. p. 283.

(22) عن عبد القادر بوراس: إعادة قراءة لبعض أحداث ووقائع المقاومة، أعمال ندوة "تاريخ المقاومة المسلحة في المنطقة الوسطى الجنوبية"، المندوبية السامية، الرباط، 1997، ص. 106.

يتعلق الأمر بالهجرة الجماعية المسلحة لقبائل بأسرها، عنادا منها في التمسك بالحرية وعدم الإذعان والخضوع للمستعمر، فقد سبق أن أشرنا إلى هجرة آيت حمو من بلادهم إلى شرق تافيلالت، وفي أواخر سنة 1931 وبداية يناير 1932، أمام الحشود العسكرية الفرنسية المطوقة والمهاجمة على واحة تافيلالت، هاجر وانكسر آيت حمو وآيت خباش وبني امحمد وأتباع معمي بن موحى وحمو الزاياني المشهور بولد الفاسية وأتباع بلقاسم النكادي، في مسيرة يسميها آيت خباش تَارُوزِي سْ سِّيحَلْ (الإنكسار إلى الساحل)، فالتحق بعضهم بواحات درعة وباني، وآخرون بحمادة درعة، مجتازين هذه الفيافي في ظروف مناخية قاسية جدا، فالفصل فصل الشتاء وما يحمله من برد قاري قارس، معرضين لقصف الطيران ومطاردة الفيالق الصحراوية.[23]

وقد لعب هؤلاء المجاهدون المهاجرون أدوارا في تأجيج المقاومة في واحات درا وباني وواد نول، وخاضوا معارك وبطولات لا يسعف الوقت بذكرها، وحسبهم أنهم كانوا آخر من ألقى السلاح بعد عقود من الجهاد والمقاومة، بعيدا عن مضاربهم بعدة مئات من الكيلومترات، وبعد أن استنفذوا آخر وسائل الصمود وخسروا شبابهم وذويهم ومالهم.

تبقى الإشارة إلى آخر المعارك التي شهدتها منطقة تافيلالت وجوارها بعد السيطرة على الواحة وهجرة بعض القبائل، والمتمثلة في معارك صاغرو وخاصة جبل بوكافر وكذا معارك جبل بادو وحمدون، والتي اتسمت بتصن ولجوء المجاهدين إلى الجبال، حيث اقترفت القوات الفرنسية في حقهم إبادة جماعية لكسر عزائمهم، بعد فرض الطوق عليهم وقنبلتهم من الأرض والجو.

وأختم بأبيات لشاعر من آيت عطا يصف محنة المجاهدين في بوكافر وصاغرو قائلا:

آ صَّالحِينْ نْ تَاداوْتْ نْ صاغرو تّدْعوتِي
آدّ أُورْ يَالْي ديبّا (Despas) نْغَدْ شاردو (Chardon) وْلا بولا (Paulin)
شَهْراينْ آينّ كّيغْ كَرْ لِيخْرا دْ دُّونِيتْ
آهَا خْسْ إِيغْزّيفِي لْعَمْرْ آلّيكْ دْ نَاغُولْ
آيَا حْبّوشْ نْ بُوكافْر آ بُو لمْجاهدِينْ
آ تَاقْمُوتّ نْ بوكافر آمّ إِيوِيجِيلْنْ.

(23) لمزيد من تفاصيل هجرة آيت خباش، يرجع إلى كتابنا سالف الذكر، ص. 33. وما بعدها.

نظرات حول الاحتلال والمقاومة في السهول الساحلية والهضاب الوسطى 1907-1912

ذ . علال الخديمي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
الرباط

كثيرا ما نصادف دراسات تاريخية متخصصة، وأخرى غير متخصصة، تصف مقاومة البوادي المغربية، بكونها كانت مقاومة عفوية تلقائية محلية ومتفرقة، وبأن المجموعات المقاومة كانت لا تقوم برد الفعل إلا عندما يصل إليها الاحتلال. إن هذه التأويلات متسرعة. في نظرنا. ولا تستند إلى أسس ثابتة من البحث العلمي، إن لم نقل إنها مجانبة للحقيقة التاريخية بالمرة. لأنها لا تتحفظ أو تنتبه للمستويات المختلفة لتلك المقاومة، ولا تنتبه لعواملها العميقة ودوافعها اللحظية أو المباشرة.

ونود في هذه المداخلة، بالتركيز على خصوصيات المقاومة ببوادي السهول الساحلية والهضاب الوسطى، أو ما يمكن تسميته بالمغرب الغربي، أن نثبت بأن أهم خاصية لتلك المقاومة كانت هي الاستجابة الفورية ـ حقا ـ لدواعي التضامن والتحالف المقدس ضد العدو. أي أن هناك عوامل عميقة كانت تهيئ النفوس وتدفعها إلى الاستعداد لمواجهة الطوارئ، كلما تعلق الأمر بمواجهة خطر الغزو الأجنبي. إذن فالإشكالية المطروحة هي: كيف نبرهن على أن مقاومة البادية المغربية كانت مقاومة جماعية، صلبة، وواعية بفضائل التضامن، وبضرورة التعاون لرد الغزاة ؟.

تبرز مقاومة قبائل الشاوية وزعير وزمور وتادلة والغرب، خلال سنوات 1907-1912 خصائص متشابهة، وسأكتفي بعرض بعض الأمثلة من المقاومة في الشاوية وزعير وزمور.

أولا: مقاومة الاحتلال بالشاوية

نظرا لكون هذه المقاومة أصبحت معروفة من خلال العديد من الدراسات[1]، فسنختصر الكلام حولها. في 2 غشت 1907، قررت الحكومة الفرنسية احتلال مدينة الدار البيضاء ومعاقبة قبائل الشاوية، تحت ذريعة الثأر لمقتل عدة عمال أوربيين بمرسى المدينة يوم 30 يوليوز 1907، وقبل وصول قوات الاحتلال التي قدر أن 3000 جندي كافية لاحتلال الدار البيضاء وباديتها، نفذ الفرنسيون مؤامرة إرهابية هدفها دفع المخزن والمغاربة بعامة إلى الاستسلام للقوة[2].

وهكذا تعرضت الدار البيضاء في الصباح الباكر من يوم 5 غشت إلى قصف شديد مفاجئ، نفذته سفينة حربية جاءت من طنجة، ثم عززتها ثلاث سفن أخرى إحداها إسبانية. وعلى الرغم من الاعتداء الغادر، والمذابح التي ارتكبتها قنابل السفن التي أرسلت على عجل، ثم سفن الأسطول الفرنسي بعد ذلك، والبحارة الذين نزلوا خفية قبل وصول الأسطول، وجنود اللفيف الذين قضوا على من وجدوه حيا[3] بأزقة المدينة؛ فإن المغاربة نظموا مقاومة اتصفت بالضراوة والإصرار، والاستمرار؛ منذ يوم 5 غشت إلى يوم نزول قوات الاحتلال، التي أنقذت الفرنسيين المتحصنين بالقنصلية الفرنسية من هزيمة محققة.

حصنت قوات الاحتلال نفسها في خنادق حول المدينة، وتمركزت بها تحت حماية مدافع الأسطول التي كانت تقصف البادية المجاورة، كلما شاهدت تجمعات المغاربة. وبالرغم من القصف المستمر نفذ المجاهدون هجمات شديدة على خطوط المحتلين. كانوا أحيانا يكادون في هجماتهم يدخلون إلى معسكرات الجيش الفرنسي. مما دفع الجنرال درود قائد قوات الاحتلال، إلى وضع ألفي جندي على خط النار لحماية قواته، التي أصبحت محاصرة، لا تجرؤ على الابتعاد عن المدينة بل تتعرض لهجمات جريئة مثل ما حدث أيام 10-16-18-28 غشت.

وقد تمكن المجاهدون من حصار الدار البيضاء، ومنعوا عنها الإمدادات من الداخل، وترافق ذلك مع إعلان الجهاد رسميا، من طرف مولاي عبد الحفيظ، الذي بويع يوم 16 غشت بمراكش[4].

وعوض أن يصاب المغاربة بالخوف والهلع من الأسلحة الفرنسية الثقيلة، دب الخوف في صفوف قوات الاحتلال، بعد أن تعرضت لهجمات متكررة وجريئة، وخاضت اشتباكات شرسة مع

---

(1) راجع بالخصوص : علال الخديمي، التدخل الأجنبي والمقاومة بالمغرب 1894-1912، افريقيا الشرق، ط 2، الدار البيضاء، 1994.

(2) ذكر الكونت دو سانت أولير أن سيناريو الاعتداء على الدار البيضاء اتفق عليه مسبقا وأنه هو الذي أرسل السفينة كاليلي بعد أن اتفق مع قائدها على الخطوات التي ينبغي تنفيذها.

(3) ارتكبت قوات الاحتلال عدة مذابح أشهرها مذبحة السور الجديد، لمزيد من التوسع، راجع التدخل الأجنبي والمقاومة، ص 254 وما بعدها، Georges Bourdon, ce que j'ai vu au Maroc, Les Journées de Casablanca, Paris 1908.

(4) جاءت وفود المجاهدين من كل قبائل الشاوية وكان زعماؤها قد دعوا إلى التضامن والتحالف بين جميع القبائل لتأمين السبل وتوجيه الطاقات نحو رد أي خطر يأتي من البحر، منذ حادث 30 يوليوز 1907. وازداد الحماس للجهاد وتضاعفت الجهود بإعلان بيعة مولاي عبد الحفيظ.

المغاربة، رددت صداها التقارير العسكرية. وطلب الجنرال درود من حكومته المزيد من الإمدادات لمواجهة الموقف بالدار البيضاء أولا، أما الهجوم على قبائل الشاوية في أرضها فلا يمكن تنفيذه- في نظره -لأنه يتطلب عددا كبيرا من القوات. كما طالب حكومته بضرورة القيام بعمل سياسي سريع لتفكيك تجمعات المغاربة حول الدار البيضاء ولإقناع القبائل بوضع السلاح[5].

وجاء في تقرير لاستخبارات جيش الاحتلال عن الوضعية السياسية بالشاوية في 20 غشت 1907 :

"إن تجمعات المغاربة في تادارت والحاج بوعزة وتيط مليل تبين بالفعل وبوضوح أن النفوس محصنة ضدنا جدا. وأن جمهور الشاوية يرغب في الحرب. هذه هي الوضعية كما تبدو الآن. إننا لا نوجد - كما كان يعتقد - في مواجهة بعض قطاع الطرق المنعزلين، أو بعض المجموعات من العصاة والمتمردين، ولكننا نواجه تحشدات كبرى من القبائل التي تبدي عداوة حقيقية نحونا[6]."

وبالجملة فقد نتج عن الاشتباكات التي خاضها المغاربة ضد جيش الاحتلال حول الدارالبيضاء أن انحطت معنويات جنود الاحتلال، ونكتفي بهذا الوصف لابراز الحالة، قال كونجو: Conjeaud "لقد انحطت معنويات الجنود فكان جنود اللفيف والرماة يفرون تقريبا في كل أسبوع، بحيث كان الأهالي (يقصد الجزائريين والتوانسة) ينتقلون لمعسكر مولاي حفيظ، أما جنود اللفيف فكانوا يحاولون المرور للرباط، حيث كان القنصل الألماني ينقلهم إلى بلادهم."[7] وسجل الشاعر الشعبي هذه الحالة بقوله :

طاح ميمون الكفرة كبار وصغـــار　　صادف لمحان ولفتان والخســـارا

كم من كافر للرباط دخل عريـــان　　هذي هانا وليس تشبههـــا هانـــا

هكذا سقطت خرافة ردود الفعل العفوية لجماعات من "العصاة" و"المتمردين" و"اللصوص" الذين لا يلبثون أن يفروا أمام ضربات الأسلحة العصرية. واعترف المستعمرون بحقيقة الواقع التي تقول: إن الأمر يتعلق بشعب متحضر يرفض الاحتلال ويتحدى تفوق سلاح المحتل.

إن المقاومة التي أبداها المغاربة في سهول الشاوية وتلالها والمعارك التي خاضوها سنتي 1907-1908، قد أثبتت بالفعل أن مقاومة البوادي المغربية كانت مقاومة جماعية منظمة. وأنها كانت تستند على دوافع عميقة، من الإيمان بضرورة بذل النفس والنفيس للدفاع عن الأرض، والدين، والكرامة والوطن. ولذلك كله مثل المجاهدون البدويون خصما مخيفا للقوات الغازية، التي كانت تعتمد على تفوق السلاح، وكثافة النيران في الميدان، لتتجنب الخسائر الفادحة. كما لم ينفعها العمل السياسي الطويل الذي مهد للنفوذ الفرنسي في الشاوية وفي غيرها من السهول الساحلية.

(5) التدخل الأجنبي والمقاومة، م س، ص. 292.
(6) L.Col. Huot, La Situation politique en Chaouia Août 1907-Janvier 1908, B.S.G.M.T, T3, 1922, p. 109.
(7) Conjeaud, Histoire Militaire du Chaouia, p. 75.

وما ينبغي التأكيد عليه من خصوصيات المقاومة بالشاوية، هو أن حركة الجهاد فيها كانت حركة مغربية عامة؛ ضمت مجاهدين من القبائل المجاورة للشاوية، مثل دكالة و الرحامنة وزعير وتادلا، ومن جهات بعيدة، مثل جبال الأطلس وتافيلالت. لقد جاء المجاهدون للشاوية تلبية لنداء الجهاد، الذي أعلنه مولاي عبد الحفيظ، ورددته زعامات دينية في البوادي والمدن. فالمحلة التي أرسلها للشاوية قبيل خروجه من مراكش، كان يقودها ابن عمه محمد ولد مولاي رشيد، عامل تافيلالت. وكان قائدها الميداني هو القائد عمر السكتاني (القائد الأحمر) الذي كان ندا وخصما للجنرال داماد خلال معارك الشاوية سنة 1910[8].

ثانيا: مقاومة الاحتلال بزعير

منذ 1908 أصبحت قبائل زعير وجها لوجه مع المحتلين بالشاوية، ذلك أن قبائل زعير مجاورة ومتداخلة مع قبائل الشاوية في الزيايدة والمذاكرة والأعشاش، وقد ساهم مجاهدو زعير في مقاومة الاحتلال، وانتشرت فيها دعوات الجهاد انتشارا واسعا، بعد إعلان بيعة مولاي عبد الحفيظ الذي قصده كثير من زعماء زعير وأعيانها لنيل ظهائر القيادة في قبائلهم.

وبما أن أرض زعير لم تكن معروفة بالكفاية للفرنسيين، قام المحتلون بعمل سياسي واستخباري مكثف، تلخص في ربط علاقات صداقة مع بعض القواد والأعيان، في القبائل المجاورة للشاوية. وعلى الرغم من ذلك، لم يحققوا اختراقا سياسيا وعسكريا واضحين، وإنما جنوا الفشل خلال محاولاتهم التغلغل في القبيلة.

ففي أول تدخل عسكري، تعرض الفرنسيون لنكسة نتيجة لقتل ضابط ومساعده يوم 18 فبراير 1910. ولمعاقبة زعير دخل قائد قوات الاحتلال بالشاوية الجنرال موانيي Moinier بنفسه أرض القبيلة، على رأس فرقة من جيشه عددها 1000 رجل يوم 28 فبراير 1910. وحاول تمهيد الطريق لمرور المدفعية في المستقبل؛ لكنه تعرض لهجمات اضطرته للخروج من زعير بدون نتيجة تذكر يوم 12 مارس 1910[9].

وقد كثف المحتلون بعد ذلك عملهم السياسي بزعير، و بخاصة في القسم الغربي منها أي في قبائل الكفيان. وبعد مرور سنة على المحاولة الأولى، اعتقدوا أن الوقت قد حان لكسب مزيد من النفوذ، وتوسيع الاحتلال. فدخلت دورية عسكرية بقيادة رئيس استخبارات جيش الاحتلال، القبطان نانسي Nancy إلى زعير، ولما وصلت إلى قبيلة أولاد دحو تعرضت يوم 14 يناير 1911 لهجوم خاطف، أسفر عن تدمير القوة الفرنسية بقتل وجرح معظم أفرادها، والاستيلاء على جل

(8) انظر عنه Marth et Gouvion, Aayane el Maghreb el Aqça, 1939

(9) Martin, Quatre Siècle d'histoire marocaine, p. 527.

أسلحتها وخيولها. وهكذا مني التدخل العسكري الفرنسي بفشل ذريع للمرة الثالثة، مما دفع الأوساط الاستعمارية الفرنسية إلى التخطيط لتفعيل تدخلها في المغرب، وبخاصة لما أبدى السلطان انتقاده لتصرفات ضباط جيش الاحتلال في بلاده.

ولقد تعالت الأصوات بضرورة عقاب زعير على "الاعتداء"، الذي وقع فوق أرضها ضد قوة احتلال دخلت بدون إذن سلطات البلاد. ولما كانت الظرفية الدولية غير ملائمة، تسبب التهديد الفرنسي بالتدخل في زعير في أزمة دولية بين فرنسا من جهة والمغرب وألمانيا من جهة أخرى.

ذلك أن السلطان مولاي عبد الحفيظ كان يتفاوض مع الفرنسيين وينتظر انسحاب الاحتلال من الداخل إلى الشاطئ، تمهيدا للجلاء عن الشاوية. في حين كانت الأوساط الاستعمارية الفرنسية تخطط ليكون الانسحاب نحو عمق المغرب[10]. أما الدولة الألمانية فكانت تراقب التحركات الفرنسية المنافية لقرارات مؤتمر الجزيرة الصادرة سنة 1906، وتخطط للدفاع عن مصالحها الاستعمارية، والتدخل في المسألة المغربية في الوقت المناسب.

عارض المغرب بشدة التدخل في زعير، لأن ذلك التدخل إذا حدث معناه إشعال نار الحرب بالبلاد، لأن المغاربة لن يقفوا مكتوفي الأيدي أمام زحف العدو على بلادهم. وشجع الألمان معارضة المغاربة، ومنحوا حمايتهم لبعض الزعماء من زعير الذين أحسوا بأنهم أصبحوا مطلوبين من الاحتلال. أما موقف زعير في عين المكان؛ وهو الذي يهمنا أن نعرف منه بعض خصائص المقاومة المغربية؛ فالملاحظ، أنه تميز بالتعقل والاستعداد لمواجهة خطر الاحتلال. فمباشرة بعد حادث مغشوش نشطت الاتصالات والاستشارات بين القبائل تحسبا لتدخل فرنسي لاشك فيه. وسرعان ما أسفرت المشاورات عن عقد تجمع عام بزعير، قرب قرية الرماني اليوم، ضم وفودا من قبائل زعير وزمور وتادلة وبني خيران يوم 31 يناير 1911.

حضر الاجتماع حوالي 400 فارس ممثلين لقبائل زعير بقسميها المزارعة والكفيان. كما حضر ممثلون عن قبائل تادلة وبني خيران وزمور وزيان. وقد أسفرت المداولات عن تحالف مقدس تبادلت فيه الوفود السلاهم، و اتفقت على توزيع القيادة كما يلي :

القائد حمو الشليح الخليفي من المزارعة، على رأس المزارعة وزمور، أي أن الرجل تولى القيادة العسكرية للمقاومة في نصف زعير مع ما انضم إليهم من مجاهدي قبائل زمور المجاورة للمزارعة من الشرق.

الشيخ علي بن حمو الغالمي على رأس الكفيان وبني خيران وزيان.

(10) هذا ما أكده تقرير بعثة الجنرال موانيي إلى وزارة الحربية التي طلبت رأيه في إمكانية الجلاء عن الشاوية والبقاء بالدار البيضاء. نتوفر على نسخة خطية من التقرير.

كما وقع الاتفاق على تخريب الطريق التي مهدها الفرنسيون لجلب المدفعية وإلقاء القبض على كل من يتعاون مع العدو من قواد وأعيان وقتلهم(11).

هكذا نتأكد من عزم زعير على المقاومة والاستعداد لها، أن الأمر لم يتعلق برد فعل عفوي معزول، ولا بمقاومة لحظية محدودة في المكان والزمان، بل إن زعماء حركة الجهاد كانوا يعلمون تفوق الغزاة؛ ولكن إرادة الدفاع عن الذات والعقيدة والأرض والوطن، جعلت زعير يهيئون اسراتيجية التعامل مع الغزو الأكيد. ولم ينقص تلك الاستراتيجية التعقل بدليل أن بعض الزعماء الذين حضروا اقترحوا إرجاع ما ضاع للفرنسيين إذا أرادوا الصلح، "وإلا فليقع ما يقع".

لقد نسق الزعماء مواقف القبائل، واستعدوا للمقاومة، وبحثوا عن المساعدة من إخوانهم، وما أحسن لو جاءت من المجاهد المعروف القائد موحا وحمو الزياني، ولذلك ذهب الشيخ علي بن حمو الزعري إلى الرجل ليطلب مساندته.

أليس هذا وعي من زعماء هذه القبائل بضرورة تعاون المغاربة ضد الاحتلال الفرنسي؟ بلى إن الأمر يتعلق بإرادة واعية بحدود إمكانياتها في مواجهة إمكانيات العدو المتفوقة، لكنها إرادة صلبة فخورة بمقوماتها الذاتية الروحية والمادية، تأبى الخضوع للمحتل، دون بذل النفس والنفيس، في سبيل العزة والكرامة الإنسانية. وهذا ما يمكن إثباته من تتبع الوقائع وتأويلها. أما العواقب فالواقع أن الرياح كانت تجري في اتجاه سفن الأعداء، فهم الأقوياء عدة وتنظيما، وهم المتفوقون تقنيا وماليا، لذلك عند تطبيق الخطط كانت إمكانيات المحتلين تساعدهم على الانتصار في النهاية. وبالتالي كان المغاربة يفشلون في وقف زحف الاحتلال بيد أنهم كانوا يبذلون الوسع والطاقة في سبيل مقاومته ودفعه.

وبالفعل، لقد سطر مجاهدو زعير ملاحم بطولية في عدة معارك واشتباكات مع الجيش الفرنسي، الذي دخل القبيلة صيف 1911 من الغرب والشرق. وإذا كان المقام لا يتسع لتتبع هذه الوقائع، فمن الأحسن أن نقتصر على بعض الشواهد للاستدلال على الخصائص التي لمحنا إليها.

ففي يومي 11 و 12 يوليوز 1911، وقعت معركة شرسة بعين الصباب، بذل فيها المجاهدون أرواحهم، إذ هاجموا معسكر الفرنسيين بعنف وإصرار وثبات، دون خوف من نيران المدفعية والرشاشات. وقد وصف أحد الضباط ما جرى بقوله :

"لما خرجت فرقة اللفيف الأجنبي (من الوادي)، والتقت بقوة الدعم مكونتين طابورا للعمليات، هاجم مآت الفرسان الذين خرجوا فجأة من ثنايا الأرض، التي استخدموها لإخفاء اقترابهم،

(11) من تقرير كتبه أحد المخبرين الذين أرسلهم الفرنسيون، نتوفر على نسخة منه.

بشدة وضراوة حراسة القافلة، في الوقت الذي كانت فيه مجموعات أخرى توجه نيرانا شديدة نحو القافلة... لقد كان التكتيك جيدا وصائبا، فمن يقول إن المغاربة يحاربون بالصدفة.[12]"

وعن قتال يوم 12 يوليوز ذكر أن الزعريين كانوا يهاجمون معسكر الفرنسيين في السهل من ثلاث جهات، يقتربون من القوات ويفرغون بنادقهم من نوع Winchester غير آبهين بالنيران الكثيفة والمتعاونة بين المدفعية والرشاشات والبنادق. وأضاف قائلا: "وكنا نراهم يدورون ثم يعودون بسرعة للهجوم وسط عاصفة الرصاص ليفرغوا بنادقهم. وكانت المدفعية تقصف باستمرار، وكان القناصة واللفيف وباقي المشاة يرمون نيرانا كثيفة، وكانت الرشاشات تدوي.. وفي عودتهم للهجوم بدون انقطاع لم تنحل عزيمة هؤلاء الشجعان الذين كنا نشاهد أحيانا صفوفا منهم تسقط تحت وابل النيران.[13]"

وللتأثير في تصميم أولائك المجاهدين الأبطال، لم يتوان المحتلون في تطبيق خطة الأرض المحروقة في زعير منذ البداية، فكانوا يحرقون الحقول والمزارع ويستولون على القطعان وينبشون المطامير لمصادرة الزرع المخزون. وفي مواجهة ما أثير من انتقادات لهذه الخطة، صرح ضباط الاحتلال معترفين بأن الاعتبارات الإنسانية والأخلاقية لا محل لها في مواجهة عدو مصمم. وكتب أحدهم يقول: "فلأجل التغلب على عدو شديد الشكيمة، لبعض الوقت، يجب ضربه في مصالحه الحيوية بشدة وقوة. يجب إذن حرق زراعاته بدون رحمة، ومصادرة قطعانه وتجويعه وحينذاك فقط يأتي راكعا.[14]"

وعلى الرغم من قسوة الحرب وشراسة المحتلين، فإن مجاهدي زعير لم يقبلوا الاحتلال إلا بعد أن ملأ عليهم السهل والجبل، وثبت سيطرته على أرضهم بعد قتال مرير، سقط فيه خيرة شباب القبيلة ورجالها.

ثالثا: بعض خصائص المقاومة بزمور:

أما في زمور فقد زحف عليهم الاحتلال من الشرق من جهة مكناس، إثر احتلال العاصمة فاس صيف 1911. كما جاءت قوات أخرى من الغرب، وأسس المحتلون عدة مراكز على وادي بهت وفي تيفلت والمعازيز، سنة 1911. والملاحظ أن الزموريين لم يواجهوا قوات الاحتلال في البداية مواجهة عنيفة، لكن بعد انتهاء عملية جمع المحاصيل تغير الموقف مع بداية سنة 1912. فقد نشبت المعارك ببلاد زمور، وتعددت الاشتباكات، بين قوات الاحتلال والمجاهدين الذين انسحبوا نحو الجبال لتنظيم مقاومتهم.

(12) سيكالدي ص. 58.
(13) نفسه، ص. 64.
(14) نفسه، صص. 59-60.

خاض الزموريون أزيد من تلاثين اشتباك ومعركة، وأبانوا فيها عن مهارة خارقة في استغلال الميدان، وعن ثبات وإصرار كبيرين، على قتال المحتلين، الذين كانوا يستفيدون من المدفعية والرشاشات ووفرة الذخيرة الحربية و التموين. ومن أكثر المعارك شراسة بزمور، تلك التي جرت بمرتفعات تافودايت وولجة السلطان وتيداس، خلال شتاء وربيع 1912.

والملاحظ أن تفوق أسلحة المحتلين، كان يقابله تفوق المغاربة في الاستخبار ومعرفة نوايا العدو، فكانوا نتيجة لذلك يحددون مكان وزمان المعركة. وحول هذا الموضوع كتب سيكالدي:

"أما مايتعلق بمعرفة نيته وأهدافه، فيجب أن نعترف باستحالة ذلك ولو بثمن الذهب. فلا يوجد أي مرسول يقبل الذهاب ليتجسس عند بني حكم. يمكن للأعداء أن يتجمعوا وراء القمم على بعد كلومترين منا ولا نعرف عنهم شيئا. إنهم هناك أليس كذلك، وهذا ما يعطي لوجودنا في بادية المغرب ذوقا مرا بأننا كأطفال مفقودين، فعلينا أن نكون مستعدين لحمل بنادقنا غدا أو هذا المساء أو في الليل أو في كل حين."[15]

وعن معركة الطوجين بتداس قال:

"إن معركة طويجين هذه التي أظهر فيها بنو حكم كثيرا من الضراوة والشجاعة إلى حد التعصب، قد أبرزت أيضا مرونتهم المثيرة للعجب (المحيرة) وحسن استغلالهم للأرض ودقة تصويب رماتهم وحسهم التكتيكي الفائق".[16] وأضاف متحدثا عن مقاومة زمور:

"إن هؤلاء الجبليين الذين لا ينالهم تعب، متفوقون في استغلال الميدان مهما كانت صعوبته، إنهم يتميزون بتصميم وحشي، وبطاقة خارقة، وبمرونة كبيرة في العمل على الاقتراب من مؤخرة جيش متراجع ومن أجنحته. هنا فكل ثنية من الأرض مألوفة لهؤلاء المشاة الخارقين للعادة ولهؤلاء الفرسان الذين يتحركون بسرعة وسط الصخور وكيفما كانت المنحدرات، دون توقف ودون إمهال في حركة خيولهم الجامحة التي لا تعرف العياء بدورها".[17]

وعن شجاعة المغاربة بقبائل زمور وإصرارهم على مواجهة الغزاة وتضحياتهم دفاعا عن بلادهم كتب يقول:

"إن أعداءنا المغاربة مخيفون، فهم مسلحون جيدا، والذخائر متوفرة عندهم، وشجاعتهم خارقة، وهم يستفيدون من طبيعة بلادهم الصعبة في العموم، إنهم يواجهون قواتنا بمقاومة صلبة.. إن إصرارهم على القتال لا يتزعزع أمام كل فشل، فخلال كل معركة، يسقط الكثير من

(15) نفسه، ص. 143.

(16) ص. 165.

(17) ص. 166.

المحاربين تحت ضرباتنا وفي الغد تتجدد وتنتظم الحركات التي يأتي أفرادها من دواوير بعيدة، مستجيبين لنداءات زعماء الحرب (الجهاد) المتجددة باستمرار".[18]

وهكذا تميزت مقاومة المغاربة بسهول وهضاب المغرب الغربي، بالشجاعة الخارقة، والصلابة والاندفاع إلى حد التهور أحيانا (معركة عين الصباب 12 يوليوز 1911). كما تميزت بالمرونة في المناورة والدقة في التصويب والرمي، والسرعة في التحرك، وحسن استغلال الميدان والتوفر على خيول صلبة لا ينالها نصب ولا تعب والتفوق في الاستخبار.

وتجسدت هذه الخصوصيات في حرب الشاوية التي صمد فيها المغاربة في سهول منبسطة ومثلها أبطال خالدون نذكر من بينهم:

- الأحمر بن منصور المذكوري الشاوي
- القرشي بن الرغاي الداودي الشاوي
- محمد ولد بوعبيد المزابي الشاوي

وغيرهم من الأبطال الذين لا يتسع المجال لذكرهم.

كما تجسدت في هضاب زعير وزمور وجبالهما، ومثلها أبطال كثيرون منهم من عرف اسمه ومنهم من نسي ذكره، لعدم المبالاة بتخليد الأسماء في مجتمع بدوي أمي مثل :

- علي بن حمو الغالمي الزعري
- حمو الشليح الخليفي الزعري
- الشيخ عمر الحودراني الزموري
- سيدي داحد السيبري الزموري

أما الاحتلال الفرنسي، فقد تميز باتباع خطط ثابتة ومدروسة.

أولا: تمهيد الميدان، بالتعرف المسبق على المجال والرجال. واستعمال العمل السياسي لكسب الصداقات والعملاء والأعوان والنفوذ في القبائل.

ثانيا: عمل عسكري فعال، اعتمد على استخدام أسلحة ثقيلة فتاكة، من مدفعية ورشاشات وبنادق حديثة الصنع، وعلى تبذير كبير وغريب للذخائر الحربية، بهدف التأثير في المجاهدين المندفعين، وللتقليل من خسائر المحتلين في الأرواح، الأمر الذي يؤكد ويبين أن جندي الاحتلال كان يخاف من اقتراب المجاهد المغربي منه.

(18) ص. 167.

ثالثا: حرب اقتصادية لا هوادة فيها: نهب المتاع والأموال والزرع المخزون. حرق المزارع والحقول والأنادر، مصادرة قطعان الماشية، الخ..

أما العواقب فكانت كثيرة ومؤثرة ودائمة؛ على الأفراد والجماعات بالبادية. ويمكن أن نجملها في الجملة التالية: من تعاون مع الاستعمار أغناه ومن قاومه أفقره ونفاه! و كذلك كان وحصل، في الشاوية وزعير وزمور، للذين قاوموا المحتلين ورفضوا التعاون معهم، أفرادا وجماعات. فقد صودرت أراضيهم وأموالهم لصالح المحتلين والمتواطئين معهم. وبذلك ساهم الاستعمار في البادية المغربية في حدوث تغيرات خطيرة قلبت الهياكل الاجتماعية رأسا على عقب. ثبت الحكم الفردي الاستبدادي للحكام، واختفت المظاهر الجماعية الليبرالية. استغنى العملاء المتواطئون وافتقر الكرماء المجاهدون، ولله في خلقه شؤون.

التدخل الاستعماري في البوادي وآثاره على القاموس اللغوي المتداول من خلال النصوص الشفاهية

ذ . علال ركوك
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
بني ملال

لعل المتتبع لاستراتيجية التدخل الفرنسي في المغرب يقف على اختلاف في الرؤى وتباين في التصورات لماهية السياسات التي سوف يتم تتبعها في هذا الاكتساح، الأمر واضح في تصورات دهاقنة التخطيط للتدخل وأطواره وأهدافه، ونخص بالذكر هنا منظرو استراتيجيات التدخل وعلى رأسهم ليوطي.

وإذ نسجل اتفاقا نسبيا بين الاستراتيجيين الفرنسيين حول مسألة الاكتساح العسكري فإننا نقف كذلك على بعض الخطط الثانوية المكملة للتدخل المسلح، ويتعلق الأمر بسياسة النفاذ إلى عمق القبائل واحتوائها ومحاولة مهادنتها لتسهيل عمليات حفظ الأمن وتطبيق المخططات الاستغلالية.

لقد عانت البوادي المغربية من صدمة التدخل الفرنسي الذي ألحق خللا بمجموعة من التوزانات كانت تشكل عماد الأنساق المختلفة المكونة لمنظومة العلاقات داخل القبائل، ونتج عنها تفتت لحم البنى التقليدية وظهور مجتمعات قبلية مطبوعة بالتركيب أو مركبة société composite حيث تتعايش مجموعة ظواهر متناقضة في غالب الأحيان.

وتتوخى الورقة التالية الوقوف في البداية على آليات ووسائل التقرب الاستعماري من البادية، وإبراز بعض من مخلفات هذا التدخل الذي نحصره في التأثير الذي أصاب اللغة التواصلية اليومية المتداولة بين سكان الأرياف، لكون ذلك الاختلاط طبع الألسن القروية بمعاجم جديدة دخيلة على عالم البادية.

ونتوسل للوقوف على هذه التأثيرات بانكبابنا على بعض النصوص من جنس اللاتدوين/النصوص الشعبية المنتقلة تواترا كمصدر.

إذن نقوم بمقاربة مجموعة من النصوص الشفوية من زاوية حمولات خطابها التاريخي، وفي نفس الوقت نقوم باستجلاء ذلك التأثير على مستوى اللغة التواصلية اليومية جراء ذلك الاصطدام اللامتكافئ.

أشكال التدخل الأول في البوادي قبل الحماية:

لقد اتخذ هذا التدخل أشكالا مختلفة دشنت في البداية بمحاولات اقتراب سلمية ما لبثت أن تطورت إلى آليات خطيرة أفقدت المغرب سيادته.

اشتغلت آليات الاقتراب هذه في شكل تعايش وتساكن مع سكان البوادي، وذلك عن طريق خلق تعاونيات ومخالطين في ظل الأنساق التي أثبتتها ظاهرة الحماية القنصلية، والتي ساهمت من جهة أخرى في تفشي الصراعات بين موظفي المخزن بخصوص الامتيازات الممنوحة أو التحالفات السرية.

المخالطات /السمسرة /الوسائط

ساهمت الحماية القنصلية بدور أساسي في توسيع دائرة هذه الآليات التي غزى بواسطتها التجار الأوربيون البوادي عن طريق إقامة مشاريع زراعية وتربية الماشية بأسماء محمييهم عن طريق دفع رؤوس الأموال للفلاحين مقابل جزء من المحصول أو القطيع، وتتم هذه العمليات عن طريق تعاقدهم عند العدول أو في القنصليات، وبذلك تحرر من دفع الضرائب. و النتيجة ظهور فئات جديدة في المجتمع وهما المخالطون والسماسرة، هذه الفئة كان يتم اختيارها من أشياخ البوادي وأعيانها الذين أصبحوا لا يخضعون لأوامر المخزن بدعوى الاشتغال مع الأجانب، وبالتالي ليس لأحد سلطان عليهم عدا القناصل، وكان لهذه الأحداث تأثير عميق في تدهور سلطة المخزن على رعاياه في البوادي وخلخلة بنى الأنساق التقليدية[1].

إصلاحات المخزن:

- **الترتيب:**

لقد ساهم تطبيق الترتيب كإصلاح ضريبي في التأثير على مردودية البوادي واستقرارها وإبقائها كمصدر اقتصادي مهم بالنسبة للمخزن، ذلك أن هذا الإصلاح أثار حفيظة المحافظين وساهم في فقدان المخزن لشرعيته، وبالتالي دخوله في صراع مع القبائل هذا طبعا كان له بالغ الأثر في فقدان التوازن الذي كان حاصلا بين المخزن والرعية.

---

(1) أنظر مييج، المغرب واوربا، ج. 3.

وسائل الاستقرار في البوادي بعد سنة 1912:

الجوانب القانونية:

لقد تطورت أشكال التدخل في البادية ابتداء من سنة 1912، وفي هذا الإطار عملت سلطات الحماية على تقنين هذا الوضع الجديد بدعامات قانونية ترجمت بإجراءات متباينة منها خلق لجنة استعمار الأراضي سنة 1916 التي عملت على تسهيل إسكان العائلات الفرنسية في أراضي القبائل اعتمادا على بعض مبادئ الاستعمار المختبرة[2] ثم تلتها مجموعة من الظهائر أهمها ظهير 9 أبريل 1919 الذي حدد طرق نزع الملكية بدافع المصلحة والذي حرم الجماعات والقبائل والأفخاذ من مجموعة من أراضيها.

إضافة إلى وسائل لوجيستيكية لمساندة وتدعيم توسع الاستعمار الزراعي مثل القروض التي كانت تمنح للمعمرين من أجل استصلاح أو عصرنة الاستغلال والتعاونيات التي تعمل على توفير مجموعة من الوسائل الضرورية لإنجاح عمليات الاستغلال مثل الحصول على الآلات والأسمدة والوقود وغيرها.

كل هذه التدخلات ساهمت في وضع مشهد زراعي رأسمالي عصري يعتمد منتوجات تجارية لتلبية حاجيات الجالية الأوربية والتصدير، بجانب مشهد تقليدي معاشي.

الجوانب التنظيمية:

- **القواد:**

حاولت سلطات الحماية استغلال الإرث القديم التدبيري لدواليب الدولة الهرمة (المخزن)، وتسخيره لتسهيل مهامها في إعادة السيطرة على القبائل وتمكين معمريها من الاستقرار. وفي هذا الإطار أعطت قوانين الحماية سلطات واسعة للقواد خاصة رفقة أطقمهم من الشيوخ والمقدمين تفوق سلطات الباشوات في المدن. لقد كان القواد يقومون بدور المنفذ لتعليمات السلطة المركزية ويمارسون القضاء المدني والجنائي[3]. ومن خلال هذه السلطات كثيرا ما كان السكان يتعرضون لمجموعة من التعسفات مثل الإكراهات الجبائية والالتزام بالسخرة إلى غير ذلك.

- **ضباط الشؤون الأهلية:**

ويدخلون ضمن منظومة جهاز المراقبة الذي وضعته الإقامة العامة حيث كانوا يوحون للقواد بالقرارات الواجب اتخاذها ويشرفون على الفلاحة والري والصحة العمومية ويزودون الشركات والمعمرين باليد العاملة، ولهم وسائل وقوات التدخل مثل الكوم والمخازنية وقوات الجيش[4].

(2) البير عياش: المغرب والاستعمار حصيلة السيطرة الفرنسية، ترجمة عبد القادر الشاوي ونور الدين سعودي/مراجعة عبد الأحد السبتي وسعيد بنسعيد/سلسلة معرفة الممارسة، الطبعة، 1، أبريل 1986، ص. 174.

(3) عياش البير: مرجع سابق، ص. 106.

(4) المرجع نفسه، ص. 108.

العلاقات الجديدة بين القبائل والمعمرين:

نظرا للاقتحام الذي شهدته القبائل/البوادي عبر مجموعة الآليات التي وقفنا عندها، نلاحظ أن درجة التأثر جراء التدخل كانت مختلفة حسب مجموعة من المؤشرات مثل التعامل مع الدخيل وجغرافية الاستقرار إلى غير ذلك.

فالتأثير نلمسه على مستوى جغرافي، حيث نجد أن المناطق التي شهدت تدخلا عسكريا في البداية ثم نموا وتوسعا لاستقرار المعمرين يظهر فيها جليا ذلك التأثير على مستوى المعجم وحمولات الخطاب.

ونفس الملاحظة بالنسبة للمناطق التي دخلت في علاقات قديمة مع الأوربيين عن طريق التبادل التجاري خلال القرن 19م على رأسها الموانئ الثمانية والأراضي أو البوادي المحيطة بها، والتي شهدت محطات التواصل بين الأوربيين وعالم البوادي عن طريق إقامة تعاونيات واستغلاليات مشتركة عبر وساطات السماسرة والمخالطين .

- **المتن:**

من خلال مجموعة من النصوص الشفاهية[5] التي تنتمي للأدب الشعبي سواء كانت مغناة أو تردد لدى الطبقات الشعبية، والتي تعتبر لسان حالها ومنبر تصريحاتها وسجل بطولاتها وذكرياتها وممررا لخطاباتها وتصوراتها وتطلعاتها، والتي لها من الحمولات الحدثية والتاريخية ما يجعلنا نقف عندها ولو على سبيل المقابلة[6] مع ما هو مكتوب حتى نتبين حدود مساهمتها.

النص رقم 1

هذا النص عبارة عن قصيدة مغناة في ناحية الغرب، ولعل ما ينسج أليافها هو أحداث خلع الملك محمد بن يوسف وتنصيب محمد بنعرفة ومحاولة اغتيال هذا الأخير من طرف المجاهد علال بن عبد الله سنة 1954.

النص رقم 2

مْحَزْمَة بِالْفَرْدِ كيفْ الجْدارْمِي
مْحَزْمَة بَالْفَرْدْ نُوضِي اتْجَاهْدِي
الْمُطورْ ادْيالْ الْكَازْ
دْخَّانْ اعْجَاجْ

(5) المرجع :علال ركوك، المقاومة المغربية من خلال التراث الشعبي، الرباط، 2004.

(6) السوسيولوجيا السياسية للمغرب العميق في سيرة بول باسكون، سلسلة نقد السياسة، منشورات (2) دفاتر سياسية/ 2005 ص.27.

النص رقم 3

كَالَتْ لِيكُمْ غيرْ ضَرْبو
وَلّى نَاخُضْ كُومي
غيرْ آتْحَزمُو كُونُو رَجَّالة
الِّلي تْهَرَّسْ هَالْكْرَارَسْ

الِّلي آتْحَفَّى رَاهْ سْباطي
ضَرْبُوا مَاكَيْنْ هرُوبْ
آنْخَلَّطْ بَارُودْ وكَرْكوبْ

النص رقم 4

لّي تَلاَ مَا هُو مَنَّا
وَاشْ فَالرَّجْلَةْ مَايَخْفَى
وُرَّك وُادْفَعْ الجَلْفَةَ
وَادْ زَمْ مْدينَةْ صغْيِـرَةْ   لَكنْء الَّرجَالْ فيـــهْ
قْبَايْلو ثلاثةَ جيرانـــُو   وُكْترتْهُم سَاكْنينْ فيهْ
ولاَدْ سميرْ الحـــرار   جاءين قراب ْ ليـــه
بني خيرانْ وايتْ عمَّار   الْغارْ شْعلو النَّارْفيـهْ
وُالسَّماعْلةْ كُلَّهمْ رْجالْ   هذْ الشّي عارْفيــنْ
الَّسماعْلة وْبْني خيرانْ
كُلُّ خيمةْ وُلدَتْ عْلامْ
الَّسماعْلةْ وبني خيرانْ
علْطْرابَشْ كبلعْمانْ
الَّسماعْلةْ وْبني خيرَانْ
خُّوتْ جيرَانْ

النص رقم 5

شْرَاجَمْ الْحَاجْ كَالْهُمْ الْكاز
كْويزَة فَكْعَانَة بْغاتْ الْهَانة
الطّنُوكَة زَادَتْ مَنْ الْحَدْ بداتْ
الطّنُوكَة سرَاوَمَنْ الْحَاجَبْ جاوْ

لكُورَة تَوَدِي مَنْ هَرِي لَهري
لكُورَة تَوَدِي وَالطَّنْكْ حَابَسْنِي
كُولْ الْخُوكْ آعْكَبْ رَاهْ الَّطنْكْ رْكبْ
الطَّنُوكَة لْكبَارْ كَدَمُوا الدُّوارْ
الطَّيَّار إِيدُورَ وَيَضَرَبْ بَالْكورْ
الْحَاكَمْ تْوَاطَى لاحْ لَكْلاطَة
مَدى مَنْ رُومِيَة بْقَاتْ مَشْوية
لاليجُو لَزْرَقْ دَارَهاَ وزْلكْ

النص رقم 6

انْهَارْ ابْغَاتْ تْهَزُوا فْرَنْسا دَارَتْ الْجَمْعِيَا عْلِيهْ
نَوْضُو السَنْيا فِي الدْوَاوْر لَمْقَدمْ وَالشِّيْخْ يَجْرِي عَلَى كُلْ جِيهْ
ابْنَادَمْ مَسْكِينْ مَاقَارِيشْ غَا ابْحَالْ لَبْكَرْ سَادْ وَدْنِيهْ
تَايْسِينِي فِي الْكُنَّاشَ وَمَا كَيْعَرْفُوا أَشْفِيهْ
شوف كيوم ولد الحرام واش هاد الساياسة فيه
اجْمَعْ هَذا السَنْيَة وُدَاهَا للدُوَلْ
لَفْرادَا الشَّرْشورْ عَنْدْ لاليجُو كلها الآدام اتشوف فيه
عَلالْ بَنْعَبْد الله لاَبَسْ كَسْوَة بَيْضَة دَارْ ليصَانْص للمُطورْ وَزادْ فيهْ
كَالُوا ضَرِبُوا طَيْحُو مَنْ فُوقْ الْعَوْد وَالْعَلَمْ اتْشُوفَ فيهْ
هُوَ امْوصِي وَحَدْ مَنْ الزُّعمَا إِيثِيري فيهْ
كَالُوا لَهُ بَرْدَتْ الْحُرِيَة وَالاسْتِقْلالْ كَاعْ ادُوَلْ سِينَاتْ ليهْ

النص رقم7

آشْ هَدْ الْحَكَمْ تَاعْ الظَلْمـــــَــة
جُوجْ عَسَّــاتْ فُــمْ لَبِيـــــــرُو
جُوجْ عَسَّاتْ فُمْ الْمَطْلـــَـــكْ

النص رقم 8

يُومْ السَّبْتْ الْمَعْـــــــــلُومْ
رَاهْ جَابَدْ لينَا بَالْكـــُــــــومْ
راهْ سَالكَانْ غِيرْ يـــــــدُورْ
كُلْهــَا وَعــْـــــــــــلامُو

النص رقم 9

كاتْ ليكُمْ كْلْنَا ليكُمْ
كُلْ حَاكَمْ أُوخَطْءء إيدِّيهْ
كُلْ غدَّارْ أُوكْناشُو
تَا الجاري عَادْ إيفَارِي
طَاحتْء الظَّلمَةْ فِي البيرُو
أَشْهَادْ الْحكاْمْ تَاعْءء الظَّلمَةْ
وُعاجْبْهُمْ حكَامْهُمْء كُلَّ ايديرْء لِّي يْواتيهْ
طْموعْ الدنيا أَغواهُمْ والحكامْ طْغاو فيهْ
وتأَّفقُوا جْميعْ فْكْلاَمْهُمْ كَالُوا المغْربْ نْسيْطرُوا عْليهْ.

النص رقم 10

وَرَا الجْماعَةْ دُوكْ الُّرهوط
مذَا عْمْلو فينَا مْنْ كْشُوطْ
فْضْحُونَا وْاخْلاو البْلادْ
فْرقُونَا بالكْرعْ كِي الكُرشَةْ
وْبْقَاتْ بْءلأدْءنَا إشَاعَةْ
كَاتْ لِيكُمْ كْلْنَا لِيكُمْ
الرَّجْلةْء علَى مْنْ تخْفَى
لِّيْ تْلاَّ مَا هُوَ مْنَّا
وَاشْ فالرَّجْلَةْ مَا يْخْفَى.

النص رقم 11

رْقْدُو سيدي فَالصبَّاحْ
ثْمُو سَايْرِينْ بيهْ
ليصأنْصْ دَارُوهَا قليلةْ
وْقْرا آيَةْ منْ القُرآنْ
وَلِيِّ صَيْكْ مْكْري عْليهْ
وَالتَّسْبيحْ كَانْ في ايدِّيهْ
حَطْ التَّسْبيحْ عْلى المُوطُورْ
أُمُولْ الشَّيء قَادْ بيهْ.

ملاحظات أولية حول المتن:

- **تحديد المفاهيم:**

يعتبر تحديد المفاهيم ذو أهمية في حقل التاريخ، خصوصا وأن هذه المعاني تتغير بتغير الفترات التاريخية التي ظهر فيها المفهوم وتطور، علما بأن معنى ومدلول المفهوم التاريخي سرعان ما يتغير، إضافة إلى أن هناك حركية دائمة ومستمرة تطبعه نظرا لحركية وديناميكية التاريخ، وهذا من شأنه أن يحصر تفسير المفهوم ويحد من اتساع استعماله وفهمه داخل حقل التاريخ على الخصوص.

خصوصيات الخطاب:

بالنسبة للمؤرخ قد يقف على مجموعة من الخصوصيات من خلال سمات التعابير اللغوية والمفردات المعجمية والدلالات الأسلوبية، هذه الخصائص لها من المحمولات ما يحدد مرجعيتها وإيديولوجياتها تحتاج إلى استقراء ممحص لخلفيات الدوال اللغوية المجردة.[7]

للوصول إلى مكنون هذا النص لا يجب الاكتفاء بمحموله المعلوماتي والإخباري أي سرد الأحداث بل يجب الاستعانة بأدوات ومفاهيم لسنية تمكن من النفاذ إلى منطقه الداخلي والذي يتجاوز بنيته السطحية[8] .

من خلال النصوص نجد الخطاب الإطار المتمثل في الرواية الشفوية كما يتم سردها وتناقلها ونجد خطاب النواة المشكل من الوقائع الأساسية الحدثية التاريخية.

لا يكفي لقراءة النص هنا الاكتفاء بالوقوف عند التعبير الصريح الذي هو شرح الكلمات والجمل وغيرها، ولكن يجب النفاذ إلى الوجه الخفي للنص لإدراك ما قد يزودنا به من معلومات قد تغني المضمون إضافة إلى ما يصرح به.

من خلال نماذج المتن المقترح نقف على ما يلي:

1/ المعجم الدخيل:

السنيا	:	التوقيع	ساليكان	:	الجنود السنغاليون
لفراد	:	مسدس	ليصانص	:	الوقود والبنزين
السرسور	:	الرشاش	الموطور	:	المحرك
لاليجو	:	اللفيف الأجنبي	الكاز	:	الغاز

(7) عبد الأحد السبتي، التاريخ واللسانيات، منشورات كلية الآداب بالرباط، 1992 ، ص. 29.

(8) نفس المرجع، ص. 90.

ايتيري	يرميه بالرصاص	كومي	جندي
مادام كاسكار	مدغشقر	الكرارس	العرجات
كيوم	كيوم المقيم العام	تفرما	أصيب بعطب
كلابطو	الرشاش	سباط	الحداء
طنوكا	الدبابات	الجدارمي	الدركي
الشاف	القائد	القصدير	السقف
الكور	المتفجرات	البيرو	الإدارة /المكتب

2/ التصنيف :

نلاحظ بداية أن أغلب الكلمات الدخيلة أو الجديدة هي من قبيل ظهور معجم حربي/عسكري أصبحت ذا مكانة في اللهجة المحلية خصوصا في البوادي.

نقف كذلك على مجموعة من أسماء الأماكن الجغرافية التي أصبحت لها أسماء عامية خاصة، وأسماء الأشخاص، وألقاب الرتب مثل "الشاف"، والمواد، إلى غير ذلك.

أغلب هذه الكلمات أو المفردات آتية من اللغة الفرنسية، وأصبحت تنطق محرفة شيئا ما عن لغتها الأم، وتؤدي نفس المعنى داخل المعجم اللهجي المغربي.

تعليق على التصنيف:

يبدو من خلال هذا التصنيف أن أيادي الاستعمار تسعى إلى فرنسة المغرب وبواديه من خلال مخططه الاستعماري الهادف إلى طمس وإذابة الهوية.

فليس من الغريب أن تتعرض لغة شعب من الشعوب في مرحلة الغزو والاحتلال إلى محاولات "الإدانة "و"المحو" باعتبارها معيارا أساسيا لتحديد الذات والهوية القومية، فهي سريان الأمة، وأقنوم الحضارة وقبلة الفخر والولاء، كما يقول جمال الدين الأفغاني: "**ولو أضاعت أمة لسانها لفقدت بالطبع تاريخها وحضارتها**"[9]. فانطلاقا من كون اللغة العربية لغة موحَّدة وموحِّدة فقد كانت ولا تزال عرضة لكل أساليب الحروب التي عرفها التاريخ اللغوي، وما تميزت به هذه الحروب من خطط وخداع كان للغة العربية عامة والدارجة المغربية نصيب وافر منها.

وهنا يطالعنا نموذج البوادي المغربية وما لحق بها جراء التدخل الاستعماري الفرنسي من سلب ونهب وسفك للدماء، ولسانها هو الآخر لم يسلم من أذى الاستعمار، وخير ما نزكي به قولنا

(9) زهر الدين صالح، اللغة العربية بين الأصالة والتشويه، مجلة الوحدة، السنة الثالثة، العدد 33-34/1987 (مجلة).

هو النظر إلى مدى التأثير الذي ألم باللغة التواصلية اليومية من تطفل واكتساح لبدويتها، ونقصد بتأثير النسق الفرنسي في تعبير سكان البوادي المغربية تكرار عدد من المفردات، أو التأثر بعدد من التراكيب والبنيات الواردة من أصل فرنسي، الأمر الذي يؤدي إلى ما يعرف ب "الازدواج اللغوي" داخل المحيط البدوي تدعمه السياسة اللغوية الاستعمارية، بحيث تجعل من البدوي يقبل على تعلم هذه الكلمات مكرها غير راغب وذلك لتحقيق العملية التواصلية مع الآخر، والتعامل معه معاملة جافة أو سلطوية أحيانا في وسط متشبع باللغة الفرنسية (جيش، إدارة)...، فهؤلاء السكان لا يكترثون بخطورة هذا الازدواج "اللغوي" اعتقادا منهم أن القيمة الاجتماعية للعربية ليست كالفرنسية، الشيء الذي يساعد على اكتساح وتوسع معجم من مثل هذه الكلمات الدخيلة على المعجم. ومن تم فساد لسانها وبالتالي ضياعه.

خلاصة

يتضح مما سبق أن التدخل الاستعماري في البوادي لم يبق محصور التأثير على المستوى الاقتصادي والسياسي، بل تعدى ذلك إلى ما هو أنفذ و أعمق في دواخل المجتمع المغربي وأنساق بنياته. ولعل ما وقفنا عليه من خلال دراسة هذه النصوص يؤكد صنيع التدخل الاستعماري من خلق ازدواج لغوي للتواصل مع الآخر، ثم إن هذا التأثير اكتسح حتى عالم الحواضر الناشئة في ظل مجتمع الحماية عن طريق الأحياء الهامشية مولودة في المدن الصناعية كالحي المحمدي مثلا.

ومن جهة أخرى نقف كذلك على أهمية هذا الأدب الشفوي الذي يؤكد من جديد غنى حمولاته الحديثة و تنوع خطاباته، و بالتالي يدعونا إلى مزيد من استغلاله و الوقوف عند خباياه.

الجهاد والمقاومة بسوس
1927-1912

ذ. أحمد بومزكو [*]
باحث، تزنيت

مقدمة:

استأثرت منطقة سوس بأهمية خاصة غداة التوقيع على معاهدة الحماية. واصطبغت لحظة الصدام التاريخي بين القبائل والاستعمار بجملة من الخواص، من منطلق كون المنطقة منبع حركة كادت أن تعصف بالوجود الفرنسي بالمغرب. كما شكل ترابها معقلا لحركة جهادية لم تتوقف إلا في حدود 1934. إضافة إلى أنها أضحت مسرحا لصراعات بين الدول الاستعمارية في ظل الوضع الذي أفرزته الأوفاق الدولية لما قبل 1912 وتداعيات الحرب العالمية الأولى، لهذا شهد الإقليم أحداثا وتطورات كان لها كبير الأثر في تحديد وتوجيه مستقبل علاقته بالفرنسيين والإسبان على السواء.

ويروم هذا العرض ذكر بعض المحطات البارزة التي تؤطر الوضعية العامة خلال الفترة الممتدة ما بين 1912-1927، والتي توافق مرحلة حكم مولاي يوسف بن الحسن.

I - حركية الجهاد بسوس غداة توقيع الحماية:

1 - حملة أحمد الهيبة على مراكش:

فعلى غرار باقي المناطق المغربية الأخرى، عم نوع من الاستنفار منطقة سوس، وأحس السوسيون بخطر الاستعمار. وبالنظر إلى الموقع الاستراتيجي، وتعدد الاهتمام الأوربي، فقد تعالت الأصوات للدعوة إلى الجهاد[1].

(*) أستاذ باحث، مركز تكوين أساتذة التعليم الابتدائي، تيزنيت.

(1) انخرط ثلة من العلماء والفقهاء والمتصوفة منذ البداية في الحمية الجهادية التي انتابت سوس، وقاموا بتعبئة القبائل للتصدي للتدخل الأجنبي، وتوحيد الكلمة، مع ضرورة تشديد العقوبات على خارق الإجماع، أنظر على سبيل المثال:

-المختار السوسي: النور المبتغي، صص. 112-113.

- عمر الساحلي : المدارس العتيقة . . . ج 3 ص. 129.

لم تكن هذه اليقظة أو هذه الحمية الجهادية وليدة الصدفة، وإنما تستمد منطلقاتها من الأجواء الحماسية التي استطاع الشيخ ماء العينين زرعها بالأصقاع الجنوبية خاصة بعد أن اضطر للاستقرار بتيزنيت سنة 1909[2]، دون أن ننسى تجذر التقاليد الجهادية بالمنطقة منذ القرن 16 على الأقل[3]. لهذا نرى في هذا الانبعاث والاستنفار الشامل والمدهش رد فعل تلقائي، تعبأت في إطاره القبائل عن طواعية حول الشيخ أحمد الهيبة، الذي رأت فيه العامة المنقذ والمحرر.[4]

وهكذا بادر ثلة من العلماء والفقهاء إلى الدعوة لعقد اجتماع يجمع الوجهاء والأعيان والعلماء لتعيين أحمد الهيبة زعيما للجهاد.[5]

وقد استطاعت الحركة في بدايتها أن:

- تؤسس وشائج الوحدة والأخوة بين قادة القبائل، وحتى تلك التي عرفت بصراعاتها الدائمة.[6]
- تخلق حالة من التعبئة العامة بين صفوف القبائل السوسية والصحراوية من منطلق أن هناك فراغا سياسيا لابد من تعويضه، ولو على المستوى المحلي[7].
- تلهب حماس المجاهدين بمقولات دينية في إطار الوازع الديني الذي ينشط في مثل هذه اللحظات العصيبة.[8]

---

(2) أحمد بومزكو: الشيخ ماء العينين وعلاقته بآل تيزنيت، ندوة الشيخ ماء العينين : فكر وجهاد، ندوة من تنظيم كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير وبلدية تيزنيت، 2001 تيزنيت.

(3) محمد القبلي : مساهمة في تاريخ التمهيد لظهور دولة السعديين، مجلة كلية الآداب، الرباط ع. 8، 1978.

عبد الرحمان التمنارتي : الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة، تح اليزيد الراضي 1999، ص. 171.

(4) لتقديم الشيخ إماما للجهاد، انعقد أول اجتماع بتيزنيت بعد صلاة الجمعة يوم 14 يونيو 1912. وثمة اتجاهان في صفوف العلماء فيما يخص مسألة زعامته الجهاد :

* اتجاه يجمع على تقديم الشيخ أحمد الهيبة من منطلق أنه سليل أسرة عرفت بالجهاد والعلم وأن خصاله وأخلاقه تجعل منه المنقذ للإسلام والمسلمين.
* اتجاه ثان امتنع عن مناصرته بدعوى أنه أبعد الناس عن السياسة وأقربهم إلى العلم والارشاد، إضافة إلى كون أهل سوس غير متمرسين في شؤون الحكم والسياسة.

- المختار السوسي : خلال جزولة 4/ 56/ عمر الساحلي ص. 129-130.

المعسول: 368/3.

المعسول: 118/4-134.

المعسول: 175/2-177.

- El Hiba : Fils de Malainin, in "Renseignements coloniaux" N° 3 Mars 1916.

(5) المعسول: 105/3-106.

- Justinard (L): note sur L'histoire du sous au XIX siècle, in Hésperis, 1926, VII, p. 360.

(6) الإكراري : روضة الأفنان في وفيات الأعيان، صص. 39-40.

(7) Laroui (A): Les origines sociales et culturelles du Nationalisme Marocain (1830-1912), Paris 1977 pp. 384- 385.

(8) المختار السوسي : المعسول: ج. 121/4.

• تقدم على مجموعة من الإجراءات والأعمال التي اكسبته شعبية وتعاطفا كبيرين بين صفوف القبائل : منها اسقاط المكوس، والكلف عن الرعية باستثناء الضرائب الشرعية.[9]

ولما تيقن كبار القياد المخزنيين من تجذر الحركة في جسم القبائل، لم يكن لهم خيار سوى الإنضمام لصفها، لهذا سارع هؤلاء إلى تقديم الدعم للحركة اضطراريا منذ انطلاقتها من تيزنيت يوم 9 يوليوز 1912، وفي كل مرحلة من مراحلها صوب مراكش خوفا من ردة فعل السكان[10].

2 - لحظة الإخفاق والتراجع نحو سوس:

كان دخول الشيخ والجيوش المجاهدة لمراكش يوم 8 غشت 1912[11] ، وقد وصف الطاهر الإفراني هذا الدخول بقوله: ". . .ليكن في كريم علم سيدي (يقصد علي بن عبد الله الإلغي) أن السلطان المنصور بالله، دخل مراكش يوم السبت 3 رمضان من غير دفاع، بعد أن خرج منها من بها من العسكر والكبراء للقتال بعدد وعدة، فألقى الله الفشل في قلوبهم، فاختلفت كلمتهم، وخذلهم الله بما أسروا من حب الكفر، ونهبت قشالي العسكر ودور النصارى وهدمت، وامتلأت أيدي العامة من متاعهم، وفرح أهل المدينة فرحا لا يكيف، وتلقوا بزينة وأبهة. ودخل السلطان في جيش لا يعرف كنهه إلا بالمشاهدة، فاستقر به القرار واطمأنت الدار وذل أنصار الكفر، وفر جميع من بها إلا خمسة كمنوا بدار التهامي الأجلاوي إلى يوم الثلاثاء فاضطر إلى إخراجهم، فقبضوا بدار المخزن، وسرح السلطان يوم الخميس المساجين الذين في السجن أجمعين..."[12].

ويبدو أن حسم القبائل المجاهدة قد اعتراه الخلل، مما أثر سلبا على مستقبل الحركة، فهذا طالب سوسي من قبيلة أيت حمد في جوابه المطول للفقيه محمد بن أحمد البعقيلي يخبره فيه بما عاينه وشاهده بمراكش، مركزا على الإهمال الذي طال السوسيين: "أما الأعراب فقد تنمروا لنا منذ دخلنا المدينة، فكأن كل واحد منهم أسد ولج عرينه، فكانوا يعطون لنا في المؤونة قمحا أسود يعلم الله كم بقي في المطامير من سنين... ثم أننا بقينا في فندق وقد اكترينا فيه بيتا، فلم نعرف من كان حتى قام الناس وقعدوا للنهب فصرنا نحن زيتا..."[13].

كما يكشف عما كان يشعر به السوسيون من تذمر ومرارة "فاخبرك يا أخي أن نحمد الله حين لم تذهب معنا إلى تلك المدينة المنحوسة، التي يكون كل ما نزلها فريسة، فمنذ نزلنا فيها لم نلق من يرحب بنا في مناحيها، وكل ما نلقاه لا يريد منا غير الدراهم. . . "ويسترسل قائلا على لسان

(9) المختار السوسي : المعسول: ج. 126/4.

(10) المختار السوسي : المعسول: ج. 121/4.

(11) المختار السوسي : المعسول: ج. 4: 131-150، العباس بن إبراهيم المراكشي : رسالة في الشيخ أحمد الهيبة (مخطوط خزانة ذ. أحمد السعيدي).

(12) المختار السوسي : المعسول: ج. 4: 143.

(13) المختار السوسي : المعسول: ج. 4: 169.

الفقيه أوعبو" إن الأعراب أفسدوا أمر الناس، ويا ليتهم تركوه كما كان مع التباس، فقد قادوا أهل سوس ففضحوهم أجمعين، وعروا عما كان مستترا من عار السوسيين."[14]

وقد وافق هذا الوضع، تواطؤ القياد الكبار مع الاستعمار[15]، مما عجل بانهيار القدرات الحربية، وحتى لما أسر حيدة بن مايس إلى الشيخ أحمد الهيبة بما يقوم به القياد من حوله، ودخولهم في علاقات سرية وعلنية مع الفرنسيين قائلا : "إني الآن سأبذل كل أعظم نصيحة عليها وحدها يطود أمرك، فإما أن تقبلها وإما أن تردها، إن أهل سوس حين أوصلوك إلى هذه البلاد تمت مهمتهم، ولم يبق من قوتهم ما ينفعونك به. . . فإن أردت تمام أمرك فعليك الآن بهؤلاء الذين رأيتهم فتتغذى بهم قبل أن يتعشوا بك، فقد رأيت ما صنعوا بأولاد مولاي الحسن، فكيف تأمنهم عليك بعد ذلك، فوض إلي فيهم الأمر فلا تعرفهم إلا معتقلين تغذوا بهم البغال إلى قنة من قنن الجبال الشامخة بسوس، فإذ ذاك يمكن لك أن تصطنع من هم أقرب إلى نصحك"[16]. فكان جواب الشيخ في غاية البساطة والتواضع مكتفيا بالقول بأنه "منصور بأمر الله وبإذنه فلا يبالي بهم، ولا بالمئات من أمثالهم."[17]

أمام هذا الموقف المسالم، أخذ عدد من المجاهدين في التسلل إلى سوس عبر منافذ الأطلس الكبير، دون أن ننسى كون قوات القبائل آنذاك عبارة عن جماعات متفرقة يعوزها التنظيم والتموين لمواجهة الفرنسيين الذي استكملوا كافة الاستعدادات من حيث العدة والعتاد. لهذا شكل أول صدام بين أتباع الهيبة والفرنسيين بسيدي بوعثمان[18] ضربة للقدرات الحربية للقبائل، مما خلق حالة من الفوضى وعدم الاستقرار بمدينة مراكش. ومباشرة بعد تراجع قوات المجاهدين نحو سوس، توجهت همة فرنسا إلى ملاحقة الهيبة، والحيلولة دون تجميع قواته وإعادة الكرة من جديد ولتهديد مراكش، خاصة وأنه التجأ إلى تارودانت، وهو ما شكل مصدر إزعاج لها.

II - فرنسا واستراتيجية احتلال سوس:

على الرغم من كون العمل العسكري أصبح أمرا ضروريا بالمنطقة، فإن القوات المخزنية، وبتأطير وتوجيه من السلطات الاستعمارية هي من تكلفت بمطاردة الهيبة وإخضاع جزء كبير من القبائل السهلية، وذلك في إطار ما يعرف بـ"سياسة كبار القياد"[19].

(14) المختار السوسي: المعسول : ج. 4-170

(15) المختار السوسي: المعسول : ج. 4-134-150.

(16) ن. م.

(17) ن. م.

(18) ن. م. ص. 150.

(19) أو على حد تعبير ليوطي "مغربة الغزو".

- Daniel Rivet: Lyautey et l'institution du protectorat Français au Maroc, Paris1988, T1:1992.
- De Maslatrie (col): La politique des grands caïds au Maroc. Revue Militaire Française N° 111 - 1930.

1 - سياسة كبار القياد:

إن ما يعرفه الفرنسيون عن سوس لا يعدو أن يكون تلك الإشارات والتلميحات المحدودة التي جمعها بعض الرحالة الأجانب خلال القرن 19م[20]، والتي ركزت بالأساس على صعوبة المسالك وحيوية البنية القبلية العتيقة والمعقدة، التي تنتظم في شكل فسيفساء من القبائل الغيورة على استقلالها. وبركونه إلى سياسة كبار القياد يكون ليوطي قد وضع يده على أكثر القضايا إثارة للانتباه في النسيج المجتمعي السوسي، تحدوه الرغبة في استمرار الريادة والرئاسة في الاشتغال داخل البنية القائدية[21] التي أرسى معالمها السلطان الحسن[22]، أي أنه يفعل ذلك إنما يقتفي أثر المخزن في تعامله الواعي مع البنية القبلية المحلية[23]. ومن دواعي هذه السياسة كذلك حرص الفرنسيين على سحب البساط من تحت أرجل الهيبة، وذلك بكسب ود القياد الذين كانوا دعامة الحركة في زحفها نحو مراكش، كما يجد ذلك مبرره في استراتيجية التريث وجعل ممثلي المخزن أكثر انخراطا في التدبير المحلي ولو في سياق سياسي مغاير، دون أن ننسى كذلك ظروف الحرب العالمية الأولى[24]، التي أرغمت فرنسا على نهج سياسة التوافق الصعب بين متطلبات الظرفية الدولية وبين مستلزمات العمليات العسكرية بمنطقة سوس، التي لم تكن بمعزل عن الوضع الدولي العام، عبر اقتصاد المجهود الحربي الفرنسي. وهكذا كتب في مجلة مقربة من الأوساط الاستعمارية (B.C.A.F) ما يلي:

"إن النتائج المحصل عليها في الجنوب تعطي البرهان على ما يمكن فعله بوسائل أهلية بشرط مراقبة استعمالها. . . وأيضا بشرط عدم التقشف في الاعتمادات التي يمكن اللجوء إليها عند الضرورة، أقل تكلفة على كل حال من تنقل قوات أوربية ليست متوفرة بما فيه الكفاية في المناطق الأخرى من الإمبراطورية الشريفة."[25]

---

(20) De Faucauld (ch.) : Reconnaissance au Maroc 1883-1884 /Paris 1988.
- Segonzac. M. de : Voyage au Maroc, Paris, 1903.
- Gatell. J- : Description du souss, B.S.G 1, 1871.
- . . . : l'oued Noun et le Tekna à la côte occidentale du Maroc, Bs.G XVIII, 1869.
- lebel, Roland : le Maroc dans les relations des voyageurs anglais aux 16/17/18 siècle, Héspéris, T IX, 4ème trimestre, 1929.
- Brives. A. : voyage au Maroc 1901-1907, Alger, 1909.
- Le chatelier André: Tribus du sud-ouest marocain, Bassin côtiers entre sous et draa, éd. Ernest Leroux, Paris 1891.

(21) أحمد بومزكو: الظاهرة القائدية من خلال كتاب روضة الأفنان للإكراري، اليوم الدراسي حول "كتاب : روضة الأفنان في وفيات الأعيان" تيزنيت 24 مارس 1999 من تنظيم كلية الآداب – أكادير –.

(22) أعفيف م. : الحركات الحسنية من خلال مؤلفات ابن زيدان، مجلة كلية الآداب الرباط، ع. 7، 1980.
- Gerenton E: les expéditions de Moulay El Hassan dans le sous, A.F.R.C. N° 9, 1924.
أحمد بومزكو: تيزنيت والمخزن 1882–1894، مجلة المناهل، عدد 58/1998 ص. 110-130.

(23) نماذج من وثائق الخزانة الحسنية/ وثائق دار إيليغ.
- Daugan (G): les confins sud de la région de Marakech . . . p. 396.

(24) جامع بيضا: سقوط أكادير تحت الاحتلال الفرنسي وسياسة القواد الكبار في عهد ليوطي، أعمال ندوة أكادير الكبرى، 1990، ص.11.
(25) Bulletin du Comité de l'Afrique Française, Juin 1913, p. 219.

وقد قابل بعض علماء سوس هذه السياسة بنوع من الرفض من الوجهة الشرعية من خلال استصدار فتاوى تمنع التعامل مع القياد أو معاضدتهم[26]، يقول الشيخ مربيه ربه: "هؤلاء القوم كونهم طليعة العدو. . . وكونهم يقاتلون معه بالسلاح وكونهم يساكنون بمصرة تحت رايته. . . إن الفتاوي الصادرة عن شيوخنا أنه يجب قتالهم وأخذ ما لهم على حكم الفيئ والغنيمة. . . ومالهم إنما هو تحت أيدي الكفار".[27] كما تصدر البعض منهم كذلك لاستنهاض الهمم ونصح القبائل بالحفاظ على نفس الحماس الجهادي، وعدم التعامل مع الفريق الموالي للاستعمار، يقول عبد الرحمان بن عبد الله البوشواري في رسالة إلى قبيلتي إندوزال وكطيوة جنوبي تارودانت : ". . . إن الجمعة رحمة والفرقة عذاب، ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه. . . ولتعلموا أعانكم الله أن من وقف مع أمر المسلمين فنحن ندعو له بخير في صباح ومساء، ومن لا فالله يجعل تدبيره في تدميره، ويرد كيده في نحره آمين بجاه من لا نبي بعده."[28]

2 - احتلال الحواضر الكبرى:

مباشرة بعد نكسة سيدي بوعثمان، التي كانت ضربة قاسية لقدرات القبائل السوسية الحربية، طرحت مسألة سوس بحدة[29]، بعد تراجع قوات المجاهدين إلى الجنوب، لهذا تم تسخير حركة كبار القياد في فتح مجالات نفوذهم، والزحف نحو سوس وتحديدا تارودانت التي احتمى بها الهيبة وأتباعه[30]. ويبدو أن ذلك شكل مصدر إزعاج لفرنسا، خاصة وأن الشيخ كثف مسعاه لجمع شمل القبائل التي مازالت وفية لحركته الجهادية. وتحسبا لعودته إلى مراكش والحيلولة دون تجميع قواته، بادرت إلى إرسال ثلة من القياد الكبار بزعامة التهامي الكلاوي في حملة عسكرية، وضعت تحت الإشراف الصوري لمولاي الزين شقيق مولاي يوسف، لإضفاء الشرعية عليها[31]، واستهدفت في بداية الأمر مدينة تارودانت التي دخلتها يوم 24 ماي 1913[32]. وقد بادر القائد حيدة بن مايس إلى استعمال أسلوب الحوار والمسالمة في إقناع الهيبة بضرورة الدخول في زمرة المخزن، وبعث إليه قائلا : "إن الحق الذي لك علينا أن نقف معك حتى تأخذ معاشا حسنا وتسكن فيما تختاره من الحواضر، وإلا فلا يمكن إلا أن تلحق سوس بمراكش، ومتى قدرت سوس أن تمتنع عن الحمراء من

(26) أنظر المختار السوسي: المعسول (عدة مواضع متفرقة).

(27) علي الشامي: الصحراء المغربية، عقدة التجزئة في المغرب العربي، دار الكلمة للنشر 1980، ص. 109 .

أنظر كذلك أحمد بومزكو والنعمة ماء العينين: أفكار الشيخ مربيه ربه من خلال بعض مؤلفاته، مجلة المناهل عدد 49 سنة 1995 .

(28) خزانة الأستاذ أحمد أبو القاسم (تيزنيت).

(29) Justinard (L) : Notre Action dans le sous, in "Renseignements coloniaux", N° 12, 1926, p. 546.

- Voinot (L) : Sur les traces glorieuse des pacificateurs du Maroc, Paris 1939, p. 159.

(30) المعسول ج. 4، ص. 158-167 .

(31) المعسول ج. 4، ص. 180-181 .

(32) Voinot : op. cit, p. 516.

قديم وهي قطبها بل قطب كل الجنوب"[33]. كما كلف محمد بن يعيش بأمر من السلطان بمكاتبة الشيخ أحمد الهيبة، إلا أن تدخل بعض الجهات أفشلت مهمته[34]. ولنفس الغاية توسط عبد الحي الكتاني[35]، بيد أن مسعاه اصطدم بموقف الهيبة الثابت في عدم الخضوع والاستسلام، وعاتب أمثال الكتاني بقوله: "يا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار، تدعونني لأكفر بالله، وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار".[36]

مهما يكن من أمر، فإن الشيخ أحمد الهيبة استطاع الخروج من تارودانت وولى وجهته نحو أسرسيف بقبيلة أشتوكن التي تتوسط سهل سوس[37]، وفيها تمت تصفية بعض العلماء والقياد المتهمين بأن لهم صلة برموز الاحتلال أمثال : القائد عبد السلام الجراري والقائد سعيد المجاطي والفقيه أوعبو. . .[38]

وبالنسبة لأكادير التي تمثل عمقا استراتيجيا بالنسبة لفرنسا منذ حادثة 1911[39]، فاحتلالها له رمزيته لإنعاش معنويات قوات الاحتلال، إضافة إلى التخوف من تزايد نشاط رجال الأعمال الألمان بسوس[40]، لهذا كان من الضروري تحصينها حتى لا تقع في أيدي القبائل المناوئة لفرنسا. وبدعم من الكيلوليين تمكنت من إحكام سيطرتها على المدينة بتاريخ 15 يونيو 1913[41].

أما بخصوص مآل تيزنيت[42] التي كانت منطلق حركة أحمد الهيبة، فإنها أصبحت في خضم التطورات الجديدة في وضعية تردد بين الولاء للهيبة، التي مازالت تحركاته الجهادية تثير حماس القبائل، أو الاتصال بسلطات الحماية بمراكش لتعيين خليفة مخزني على المدينة[43] بعد الفراغ الذي تركه طرد النعمة منها[44]، أو التزام الحياد تجاه ما يجري آنذاك. لهذا الغرض اجتمع عرفاؤها وأعيانها، واستقر موقفهم على مكاتبة سلطات الحماية، التي سارعت إلى إرسال القائد الحبيب باقا إلى تيزنيت إلا أنه غرق في عرض ساحل أكلو في ماي 1913[45]. وأمام هذا الحدث

(33) المعسول : ج. 4 ، ص. 164.
(34) المعسول : ج. 4، ص. 180.
(35) نفسه.
(36) نفسه، ص. 181.
(37) نفسه، ص. 187.
(38) نفسه، ص. 188.
(39) Pierre Albin : le coup d'Agadir - Paris 1912.
- Raymond Poincaré : Le lendemain d'Agadir 1912 - Paris 1912.
(40) جامع بيضا، مرجع سابق /عمر أفا : التواجد الألماني بالجنوب المغربي في نهاية القرن 19 ومطلع القرن 20، مجلة كلية الآداب الرباط، ع. 19، 1984، ص. 72-74.
(41) جامع بيضا : ن.م.
(42) الإكراري : روضة الأفنان . . . ص. 50/ المعسول (مذكرات المانوزي)، ج. 3، ص. 380.
"Le sud Marocain", in Renseignements coloniaux et documents 5 et 6, (Mai et Juin 1917) p. 177.
(43) الإكراري، ص. 53.
(44) المعسول، ج. 4، ص. 171.
(45) Le sud marocain .op. cit. p. 133
الإكراري، ص. 51-53.

المفاجئ تم إيفاد القائد محمد بن دحان العبدي على وجه السرعة، وكان وصوله للبلدة بتـاريخ 12 يونيو 1913[46].

3 - رد فعل القبائل المنضوية تحت لواء الهيبة:

ففي الوقت الذي تهفو فيه فرنسا إلى تخليص تارودانت عاصمة سوس من قبضة الهيبة، وجدت نفسها وجها لوجه أمام عدة بؤر للمقاومة، وثمة خيط رابط بين القبائل التي ظلت تقاوم بكل ثقلها وقوتها، وهو الولاء للهيبة. لهذا وخلال الفترة الممتدة ما بين 1913-1915، لم تنقطع هجومات المجاهدين على المراكز الحضرية الخاضعة، انطلاقا من أعالي الجبال المحصنة.

ويبدو أن تباين الإمكانيات الحربية، من حيث العدة والعتاد بين القبائل والقوات التي سخرتها فرنسا، جعل مهمة المجاهدين تنحصر في القيام بهجومات مباغتة، وتفادي المواجهة المباشرة وجها لوجه[47]، باستثناء تلك المواجهة التي جمعت حيدة والناجم الاخصاصي بقرية "أزرو" حيث كانت الهزيمة على الأول، الذي سرعان ما استجمع قواته.[48]

وخلال هذه المرحلة شكل مثلث واد نون وأيت باعمران والأخصاص، المجال الحيوي لتحرك المجاهدين[49]، والعمق البشري والتمويني للمقاومة، وملجأ لتنظيم أمور الجهاد في الحالات الحرجة. وكانت مناسبة اجتماع أسرير التاريخي[50]، الذي دعا إليه الهيبة، فرصة أمام القبائل الصحراوية والسوسية لتدارس الوضع العام بعد سقوط المراكز الحضرية بيد القوات التابعة للفرنسيين، ووضع الخطط الحربية للإجهاز عليها.

لهذا لم يطل أمد خضوع سهل سوس، إذ سرعان ما كان هدفا لهجومات متفرقة من قبل المجاهدين على الشكل التالي:

- محاصرة تيزنيت لمدة شهرين[51]؛
- نزول المجاهدين عبر تراب قبيلة إيسندالن إلى أم جريد بهوارة، مستهدفين تارودانت[52]؛
- هجوم أيت الحسن وايت الخمس وإصبويا على أكلو والسيحل وأيت برابيم[53]؛

---

(46) El Hiba . . . In Renseignements coloniaux N°3 Mars 1916, p. 66.
- Le sud Marocain, p. 134.

(47) هذا ما يفهم من سياق حديث الناجم الاخصاصي عن الخطط الحربية للقبائل، أنظر المعسول، ج. 20.

(48) De Maslatrie (col) : la politique des grands caïds au Maroc . . . p. 368.

(49) Voinot : op. cit.: p. 162.

(50) R.C, N° 3 et 4, p. 67.

(51) Ibid, p. 161.

(52) De Maslatrie: op.cit p. 370.

(53) الإكراري، م. س، ص. 53.

- نزول الناجم الأخصاصي إلى بيوكرى، ومحاولة مهاجمة إكسيمن لقطع الطريق بين تارودانت وتيزنيت[54]؛
- دعم قبيلة إيداوتنان في حصارها لأكادير[55].

وقد نهج بعض قادة القبائل السهلية المحاصرة قدرا من الحنكة والدهاء في تجاوز الوضع المحرج، كما هو الشأن بالنسبة للقائد الجراري الذي نجح غير ما مرة في فك الحصار عن قريته تالعينت، بعد أن أغدق الأموال والهبات السخية على بعض قادة الجهاد[56].

ولأهمية الدور المنوط بالمراكز المذكورة، وتنسيق الجهود لصد هجومات القبائل، نزل الكولونيل دولاموط بأغبالو على ساحل ماسة يوم 24 غشت 1914[57]، حيث اجتمع بباشا تيزنيت. كما قام خلال يونيو من نفس السنة بزيارة قادته إلى كل من تارودانت وأكادير اجتمع فيها بأعيان وقادة القبائل الخاضعة.

وكان من نتائج هذا الهجوم المضاد، وعنف المواجهات التي جرت في عدة أماكن بسهل سوس، أن أعطيت الأوامر لباشا تارودانت حيدة بن مايس للتحرك صوب الجنوب[58]، حيث أخضع ابتداء من 20 شتنبر 1914 أم جريد بهوارة، وقدم الدعم لاكسيمن المحاصرين من طرف إيداوتنان. وبموازاة مع ذلك قامت السفينتان le cosmao و le cossard بقنبلة معاقل المجاهدين على الساحل، كما تدخلت السفينة Amiral- charner للحيلولة دون استمرار تقدم قوات الناجم الاخصاصي نحو أكادير.[59]

وفي 14 دجنبر 1914، تحركت محلة حيدة بن مايس صوب بيوكرى لفتح الطريق نحو تيزنيت[60]، والحيلولة دون الاتصال بين أحمد الهيبة وأنصاره بالجنوب، وقد أبان الناجم عن مقدرة فائقة في التحرك والانتشار في منافذ الأطلس الصغير الغربي التي تشكل معابر قديمة للاتصال.[61] وهكذا تراجع من بيوكرى نحو إيمي مقورن لاستدراج حيدة الذي مني بهزيمة بإيكونكا. وفي خضم هذه التطورات تراجع الهيبة نحو كردوس بتراب إيداوبعقيل.[62] أما شقيقه

(54) المعسول : ج. 20. 111.
De Maslatrie : op.cit p. 370.

(55) جامع بيضا : مرجع سابق، ص. 5.

(56) Voinot: Op. Cit.: p. 162.
(57) Ibid, p. 162.
- Justinard: Notre action, p. 548.
(58) Voinot ; op. cit : p. 161.
(59) De Maslatrie : op. cit, p. 370.
(60) Ibid p. 371.
(61) Ibid

(62) المعسول، ج. 4، ص. 198.
أحمد بومزكو : مادة كردوس، معلمة المغرب، ج. 19.

مربيه ربه، فحاول بتاريخ 9 يناير 1915 الاتصال بفرقة إيرعى عند قمم جبال اشتوكن انطلاقا من ماسة، إلا أنه لم يفلح في ذلك، مما حدا به إلى التراجع نحو ويجان، ومنها إلى الصحراء.[63]

4 - حملة حيدة بن مايس الأولى نحو تيزنيت 1915:

إلى حدود 1915 وجد الفرنسيون أنفسهم أمام معطيين:

أ) - المعطى الأول: هو الاقتناع بوجود قبائل غير خاضعة، وأنها مستعدة للدفاع عن كرامتها واستقلالها وحريتها؛

ب) - المعطى الثاني: الاختلاف والتباعد بين مؤيدي الاستعمار.[64]

فأمام معاودة الشيخ مربيه ربه تهديد تيزنيت وأكلو، ومحاصرة القائد عياد بتالعينت في غشت 1915[65]، انطلاقا من الصحراء، أوعزت سلطات الحماية إلى القائد حيدة بن مايس بالتحرك من جديد صوب الجنوب، تدعمه السفينة الحربية[66] De chaylla، التي قامت بقنبلة مواقع المجاهدين بأزغار تيزنيت والسفوح الشمالية للسيحل وأيت برابيم.

وكان أول عمل أقدم عليه حيدة عند وصوله إلى تيزنيت في 2 شتنبر 1915، هو استهداف ميرغت التي تشكل ممرا مهما نحو الأخصاص[67]. وبها دخل في علاقات سرية مع بعض أعيان القبائل خاصة مبارك أبو الطعم الرخاوي[68]، بعد ذلك عرج على ويجان[69] في 11 شتنبر. ويبدو أن من مقاصده في ذلك:

- القبض على الشيخ النعمة بن ماء العينين الذي استقر بها منذ 14 دجنبر 1912، بعد تعنت الوجانيين ورفضهم تسليمه لسلطات الحماية؛
- الإجهاز على ويجان، إدراكا منه بأن المنفذ الرئيسي للتوغل داخل جبال ايداولتيت لأنه "الباب إلينا وإليهم، فإن سدوه وحفظوه حق سده وحفظه، فلا شك ينفع الجميع، وإن عمره العدو فلا جرم سيطمع في قريب من الاستيلاء على بقية البلاد..."[70].

ويظهر أن المناوشات الأولى أرغمت قادة الجهاد على التحصن داخل القرى والدفاع عنها بكل الوسائل بما في ذلك استعمال الخنادق (أضراس)[71]، والتحرك بشكل أثار انتباه العدو. وكان

(63) Justinard: op. cit. p. 549.
(64) Voinot: op. cit. p. 162
(65) Ibid p. 161
(66) Ibid p. 161
(67) Ibid.

(68) المعسول، ج.
(69) أنظر أحمد بومزكو : مادة ويجان، معلمة المغرب، ج.22.
(70) المعسول، ج. 2، ص. 235.
(71) التدارتي محمد: قلائد المرجان في تعيين بعض أعلام ويجان (مخطوط).

للعلماء والطلبة والفقراء وبعض رموز الجهاد[72]، أمثال: المدني الأخصاصي والطاهر الافراني والمحفوظ بن عبد الرحمان الأحوزي، وعلي بن عبد الله الإلغي... الدور البارز في تأجيج حماس المتحصنين. أما الخطط الحربية فكانت تهيئ من طرف ثلة من الأشخاص منهم: القائد سعيد بن أحمد الكردوسي والشيخ أحمد كومزر البعقيلي والحاج يعزى الأدايي الرسموكي "فعليهم يدور أمر جزولة وهم من أحيل خلق الله وأدهاهم وأعرفهم بمكائد الحروب".[73]

وعلى الرغم من سقوط ما ينيف عن 200 من المجاهدين، فإن ذلك لم يؤثر في معنوياتهم، وكان لاستماتة الوجانيين ومن يعاضدهم أمام زحف حيدة، صدى قويا، داخل جبال جزولة، حيث سارعت القبائل إلى التعبير على تضامنها مع المتحصنين، بما كانت ترسله من مؤن وعتاد ومتطوعة. وبعد حصار استمر طيلة أربعة أيام، أجبر حيدة على الانسحاب وعاتب القائد عياد الجراري قائلا: "ما هكذا كنت تقول لي عن هذه الناحية، فقد زعمت أن الناس كلهم قد عراهم هذا الدهش من هذا الجيش اللجن، فلا نكاد نظهر أمام ويجان حتى تنقاد لنا من فيه، ويسهلون لنا النعمة" [74].

III - التحركات الألمانية بالجنوب المغربي ورهان معاكسة فرنسا في احتلال المنطقة:

1 - مظاهر دعم ألمانيا لحركة أحمد الهيبة:

ابتداء من سنة 1916 ازداد حماس المجاهدين، وأصبحوا أكثر عزيمة من ذي قبل لتغيير الاستراتيجيات الحربية خاصة في جنوب تيزنيت[75]. ففي الوقت الذي احتلت فيه اسبانيا مركز طرفاية خلال منتصف يونيو 1916 من طرف الكولونيل Benz[76]، خل هذا الأخير في علاقة مع محمد الأغضف شقيق أحمد الهيبة، وقدم له دعما ماليا يقدر بـ 1 مليون من العملة الإسبانية. والواضح أن هذا الحدث قد وظف بشكل ذكي ولافت للانتباه من طرف المجاهدين.

وفي ذات السياق كذلك، كشف الشيخ الهيبة اتصالاته مع الألمان بواسطة سيدي رحال، الذي كان رقاصا يوصل الرسائل بينه وبين ضابط بالقنصلية الألمانية بالعرائش يدعى Rohner[77]. كما تم انتداب القائد مبارك الكيلولي للقيام بربط الصلات بين الشيخ والألمان، لقدم العلاقات بين

(72) المعسول، ج. 1، ص. 342/ ج. 2، ص. 99 /ج. 3، ص. 386.
(73) المعسول، ج. 3، ص. 259-385.
(74) المعسول، ج. 20. ص. 130.

(75) Voinot : Op. Cit.: p. 162.
(76) Justinard : Notre action, p. 548.
- Voinot: op. cit. p. 161-162
- R.C N° 3 et 4 p. 67.
(77) El Hiba N° 4 p. 90.
- Maurice (L): La politique marocaine de L'Allemagne, 5ème édition, librairie Plon, Paris 1916.

آل الكيلولي وبعض الفعاليات الألمانية[78]. وهكذا، وبتاريخ 18 أكتوبر 1976، أرسل الشيخ رسالة إلى سفيري ألمانيا وتركيا بمدريد، يفهم منها أن الدولتان أرسلتا مبعوثين وهما الحاج عمر ومن بعده إبراهيم التطواني من العرائش، تخبر الشيخ بقرب إرسال سفينة محملة بالسلاح والذخيرة. وقد حرص الهيبة على إطلاع حلفائه على الوضعية العامة بالمنطقة، مؤكدا أن فرنسا "... تكالبت... لهذه النواحي ببذل الأموال والعسات، ولم يحصلوا، في ذلك، لله الحمد، إلا على الخسارة، وزاد ذلك المجاهدين حزما على حزم ويقينا على يقين". واستطرد قائلا : "ليكن في كريم علمكم أنه إن استدام عدم الاتصال بيننا مع الدولتين، وتكالب الأعداء بخزعبلاتهم وحيلهم وبذل مالهم، فربما تقع الوسوسة ويعظم الأمر". واقترح عليهما تمرير الدعم المرتقب عبر مرسى طرفاية المراقب من طرف إسبانيا، وختم رسالته بمطالبته استعجال الدعم والاتصال "والحاصل جدوا - أعانكم الله - واسرعوا، اسرعوا اسرعوا باتصال بيننا جل أو قل بأي سبب أمكنكم في أي موضع أمكنكم. . ."[79]

لهذا الغرض أنيطت للقنصل الألماني السابق بفاس Probster مهمة سرية بسوس[80]، استعان خلالها بخدمات أسير مغربي من قبيلة أولاد جرار[81] يسمى العربي بن أحمد وضابط تركي يدعى أحمد صابري باي اللذان كان لهما اتصال بممثل الزاوية المعينية بفاس محمد شمس[82].

ففي منتصف نونبر، وصلت غواصة ألمانية من نوع U.C.20 إلى مصب وادي أساكا[83]، وحاولت تمرير الأسلحة والذخيرة إلى المجاهدين، إلا أن هيجان البحر حال دون إيصال كافة المساعدات إليهم. ومن المؤكد أن رئيس البعثة الألمانية - التركية الدكتور Probster قد تمكن من النزول بالبر، والتقى بيرعى يوم 6 دجنبر، ثم اتجه نحو طرفاية ومنها أبحر إلى جزر كناريا[84]. وإذا كنا لا نستطيع تحديد حجم المساعدات التي يقال إن الألمان قد قدموها لأحمد الهيبة، فبالإمكان التأكيد على أهمية هذا الإجراء، باعتباره يمثل تهديدا حقيقيا للأطماع الفرنسية بالمنطقة، لأنه أضفى دينامية على الحركة الجهادية، وألهب حماس القبائل لاستهداف المجالات الخاضعة بسهل سوس.

(78) أنظر المعسول، ج. 4 ، ص. 104/ ج. 15، ص.233.

(79) عمر أفا: مرجع سابق، ص. 83.

(80) Voinot : op. cit. p. 162.

(81) El Hiba : op. cit p. 90.

(82) Ibid.

- Justinard (L) : Les Aït Bâ Amranes, Paris, 1930.

(83) المعسول، ج. 4، ص. 201-202.

(84) Voinot : op. cit. p. 162.

2 - رد فعل الإدارة الفرنسية:

أضحت التحركات الألمانية بالسواحل الجنوبية أمرا مزعجا لفرنسا، وفرضت نهج أسلوب أكثر حزما، لهذا بادر المقيم العام ليوطي إلى زيارة أكادير[85]، حيث اجتمع بكبار قادة وأعيان القبائل وباشا تيزنيت، لوضع استراتيجية تنسيقية لمواجهة المستجدات آنذاك. وعلى ضوء ذلك تم إيفاد ضابط للاستعلامات يدعى L.Justinard (القبطان الشلح) إلى تيزنيت[86]، بمعية القائد عبد الرحمان حديمان الذي خلف بن دحان[87]، وأنيطت إليه مهمة تقصي الأخبار عن هذه التحركات. وبفضل إتقانه للأمازيغية والعربية، ودرايته الواسعة بالتقاليد والعادات المحلية، فإنه تمكن من زرع مخبرين على طول الساحل. مما سمح لفرنسا بمراقبة تحركات الألمان عن كثب، ورصد تنقلات المجاهدين ومكامن الضعف والقوة بين صفوفهم.

أ) - حملة حيدة بن مايس 1917:

لتدارك الموقف، بادرت القيادة الفرنسية من جديد إلى إرسال حملة عسكرية كبرى بقيادة حيدة بن مايس نحو تيزنيت[88]. وهيأت له كامل الإمكانيات اللوجيستيكية لإنجاح مهمته[89]، كما توصل بدعم من الكنتافي والكلاوي. وبعد وصوله إلى تيزنيت بتاريخ 1 ربيع النبوي 1917/1335 ولى وجهته نحو قبيلة السيحل (1 يناير)، حيث عسكر بمنطقة تيغانيمين، على أساس أن يقتحم تراب أيت باعمران، الذي يشكل مجالا مزعجا ومناوئا للفرنسيين، لقربه من مركز تيزنيت، ولتردد إسبانيا في احتلاله وفق معاهدة 27 دجنبر 1912.[90]

وكان حيدة أمام خيارين إما أن يسلك الطريق الساحلي أو المسلك الداخلي الذي يمر بالمسيدرة بقبيلة أيت النص. وفي هذا الصدد تمكن الفقير حماد بن بيهي[91]، بحنكته ودهائه من مغالطة حيدة، بأن أوعز إليه بضرورة سلك واد إيكالفن لمباغتة قبائل أيت باعمران، وأقنعه بأن مناسبة العيد كافية لدخول البلاد، وذلك لانشغال الناس بالأفراح والأعراس، وتفرقهم كعادتهم في مثل هذه المناسبات. فتوجيه حيدة إلى ذلك المكان المنيع والخطير، كان ضروريا وملحا، لأنه في حالة سلوك الحملة للطريق المحدد لها مسبقا (أي الساحل) من شأنه أن يخلق مضاعفات

(85) Voinot : op. cit. p. 162.
(86) Justinard : notre Action p. 550.
- Justinard : op. cit.

(87) أنظر حول أسباب نقل بن دحان: المعسول، ج. 4، ص. 196. والظاهر في سياق الأحداث أن الحاج عبد الرحمان حديمان والقائد الغبولي الماسي كانا مجبران على التعامل مع حيدة، وبتوافق مع عياد الجراري.

(88) المعسول، ج. 4، ص.203.
- Voinot : op. cit. p. 162.
(89) Voinot : op. Cit
(90) Justinard (L) : Les aït Bâ Amranes.
- Justinard : notre Action p. 548.

(91) أحد أشهر نفاليس قبيلة أيت النص الباعمرانية، من قرية المسيدرة.

سلبية على قبائل المنطقة. والحاصل أن هذه الخطة قد أعطت في نهاية المطاف أكلها، وسمحت للقبائل المجاهدة بتأطير واستنفار قواتها، وتوجيهها إلى المكان المعلوم. فمباشرة بعد مغالطة حيدة، توجه حماد إلى إيسك، وخطب في الباعمرانيين قائلا: "طرقت أسماعي إشاعات تروج بأن حماد ندهبي قد قبض الرشوة من الباشا حيدا، وها أنذا أعلن براءتي من ذلك، ولكي تعرفوا صدق مودتي لبلادي، ها أنذا قد أتيت بحملة حيدا كاملة في أفرد (الهون) أي سلكت به وادي إيكالفن، إياكم أن يفلت منكم".[92]

وخوفا من فشلها، أحاط الباعمرانيون خطة إيكالفن بسرية تامة، حيث إن القلة القليلة هي التي كانت على علم بها. وهكذا، وفي يوم 7 يناير، تم توزيع الرماة على قمم وسفوح الجبال المطلة على المنطقة: ءوريغ، تامكرط نتلو... كما سدوا باب فج إيكالفن. واقتضت الخطة ترك الحملة تتوغل داخل الوادي، بعدها يتم الاجهاز عليها بوابل من الرصاص من جميع الجهات[93]. وخلال العمليات سقط حيدة بن مايس صريعا، وفر باقي القادة، وحمل رأسه إلى كردوس حيث معقل الشيخ أحمد الهيبة[94].

إجمالا، فقد كانت المعركة نكسة وضربة لفرنسا، وكادت أن تعصف بالوجود العسكري الفرنسي، لولا تدارك القبطان Justinard الأمر، بأن جمع شتات القوات الموالية لفرنسا[95]، وأبلغ على وجه السرعة الكمندان Mas-latrie قائد منطقة أكادير بالوضع الصعب الذي توجد عليه القوى المتحصنة بتيزنيت. لهذا بادر هذا الأخير إلى الانتقال شخصيا على متن باخرة حربية إلى أكلو، لتنسيق جهود تموين القوات المرابطة بتيزنيت[96]، وعلاقة بالحادث أوقفت فرنسا في قبضتها رقاصا كان يحمل رسالة سرية من سفيري ألمانيا وتركيا بمدريد إلى أحمد الهيبة، تهنئه بالانتصار على الجيش الفرنسي بقيادة حيدة بن مايس[97].

ومما لا شك فيه أن هذا الأمر قد فرض على فرنسا إعادة النظر في استراتيجيتها العسكرية بسوس، وحاولت من خلال صحافتها التقليل من تبعات الواقعة.

ب) - حملة الجنرال دولاموط:

في سياق الوضع الجديد الذي مالت فيه الكفة لصالح القبائل المناوئة لفرنسا، أجبرت هذه الأخيرة على التدخل بشكل مباشر في سوس، لهذا استنفر الجنرال

(92) الحسين جهادي: معركة إيكالفن، ندوة حول الأبعاد الوطنية والدولية لمعركة إيكالفن، بونعمان 1995.
(93) رواية شفوية للمرحوم موسى بن الطيفور.
(94) المعسول، ج. 4، ص. 205.
عمر أفا: مرجع سابق، ص. 78-79.

(95) Justinard : op. cit p. 549.
(96) Ibid.
- Voinot : op. cit p. 162.
(97) Voinot : op. cit p. 163.

دولاموط القوات الفرنسية على وجه السرعة[98]، مدعوما بقادة الحوز وحاحا والشياظمة ورأس الواد...

وكان وصوله لتيزنيت بتاريخ 15 مارس، ومن الخطط التي ركن إليها دولاموط هي فتح عدة جبهات (بونعمان، فوق ميرغت، إغير ملولن، إيمي مقورن...)[99] لتشتيت الجهود وإفشال خطة المجاهدين المتمثلة في تحصين جل منافذ الأطلس الصغير الغربي. إلا أن ما يثير الانتباه هو تركيز العمليات الحربية على منطقة ويجان على غرار الحملات السابقة[100]. فبالرغم من استكمال القبائل الولتيتية ومن يعاضدها كافة الاستعدادات لمواجهة الحملة الجديدة[101]، فإن تدخل الآلة الحربية الفرنسية كان عنيفا وقويا. وعلى منوال الحملة السابقة، لم يتوان العلماء والمتصوفة في إثارة حماس المتحصنين بويجان الذين أبانوا عن عزيمة واستماتة في مدافعة المحتل لمدة يوم كامل، وكانت خطتهم تتمثل في المرابطة في الخنادق البالغ عددها أنذاك ثلاثة خنادق، وعدم استعمال الذخيرة.

وحسب شهادة Dugard الذي عاين كل مراحل الحملة، فإن حملة دولاموط اصطدمت بمقاومة عنيفة، وأكد على صعوبة اقتحام هذا المنفذ، كما أبدى إعجابه بالخطط الحربية التي ركن إليها المتحصنون[102]. وبموازاة مع الآلة الحربية، نجح القائدان عياد الجراري والطيب الكنتافي في فتح شرخ داخل الكتلة المتحصنة، من خلال الاتصالات السرية التي توجت باستمالة زعيم الولتيتيين أحمد كومازر مقابل إغراءات مالية والانسحاب من ويجان[103]، وعلى ضوء ذلك نادى في الناس "إن البلد بلدي، ولا أريد أن تكونوا أيها المسلمون سببا لهدمه". أمام هذا الأمر الواقع، لم يملك السكان أي خيار سوى الانسحاب من ديارهم والاحتماء بالجبال "هكذا خرج كل من بوجان حتى لا أنيس فيه ولا ديار مع طلوع الفجر"[104]. وحتى الشيخ النعمة، فإنه تمكن من الخروج خفية إلى قبيلة أيت رخا، بينما رابطت بها قوات الجنرال دولاموط مدة ثمانية أيام، وخلالها أعطى أوامره بعدم تخريب البساتين أو قطع الأشجار.[105]

(98) Maurel (G) : Les opérations militaires au Maroc, Paris, p. 86.
- Voinot : op. cit p. 163.
- Dugard : la colonne du sous 1917, Paris, 1918.

المعسول : ج. 4، ص. 205-206.

(99) Dugard : op. cit.

(100) أحمد بومزكو : مادة ويجان، معلمة المغرب، ج. 22.

(101) أنظر مادة ويجان.

(102) Dugard : la colonne du sous, pp. 115-122-125-126-127,130.

(103) المعسول، ج. 3، ص. 386.

(104) نفسه، ص. 387.

(105) Justinard : op. cit p. 150.

وفي 21 أبريل من نفس السنة، عقد اجتماع بقرية ميرغت[106]، شارك فيه من الجانب الفرنسي الكلاوي والمتوكي والكنتافي، ومن جانب القبائل الرافضة للفرنسيين كل من: المدني الاخصاصي والقائد مبارك البنيراني والعلامة سيدي علي بن عبد الله الإلغي، والواضح أن القيادة الجماعية للقبائل المجاهدة لم تكن مستعدة لقبول شروط الحماية المتمثلة في: طرد الهيبة وتقديم الهدايا وتسليم الأسلحة بما في ذلك المدافع التي غنمتها القبائل في واقعة إيكالفن، واعتبرت تطبيقها مفتاح احتلال بلاد جزولة، لذا حرصت على عدم تقديم أدنى تنازل لفرنسا.

غير أن لقاء ميرغت يعبر في العمق عن نضج سياسي كبير لدى المفاوضين المحليين الذين يمثلون عينة من كبار العلماء وقادة الجهاد الذي تمرسوا على مثل هذه المواقف. ولما تأكدت قوى التحالف المخزني-الفرنسي من عدم جدوى التفاوض مع القبائل، وإصرارها على مواصلة الجهاد، قامت باقتحام ممر تيزي عبر بونعمان. أمام هذا الأمر لم تتوان القبائل في الالتحاق بأيت باعمران لتعزيز القدرات الدفاعية للمجموعات التي كونت خطا دفاعيا حول المنطقة[107]. ولا شك أن التباين في الإمكانيات الحربية هو ما حذا بالباعمرانيين ومن يعاضدهم، على التراجع والانسحاب من ديارهم والاحتماء بالجبال، مما فتح المجال للقوات الفرنسية للتوغل حتى حدود قرية إيسك ببسيط تاكركرا، وتمكنت بذلك من وضع يدها على المدافع التي غنمتها القبائل في إيكالفن[108]. وبموازاة مع الآلة الحربية، دخل أتباع المتوكي والكلاوي في مفاوضات سرية مع القائد المدني وأحمد إغشي والقائد مبارك البنيراني وعلي المجاطي[109]، توجت بتقديم هدية صورية للجنرال دولاموط بتيزنيت[110]، التي تراجع إليها، بعد أن طرقت إلى مسامعه أخبار عن عزم الناجم الاخصاصي قطع الطريق الشمالي بتراب أشتوكن.

IV - الطيب الكنتافي كأداة لبسط النفوذ الفرنسي على سوس:

قبل انسحابه من سوس، بادر الجنرال دولاموط إلى تعيين الكنتافي باشا جديدا على تيزنيت[111]، والغالب أن اختياره نابع من كونه يتميز بخصال ومواصفات قلما نجدها عند باقي القادة الكبار من قبيل : مكانته بين القبائل، علاقته الودية مع عدد من أعيان وشيوخ القبائل، تجربته وحنكته التي راكمها عبر محطات تاريخية بارزة منذ نهاية القرن 19، ثروته وغناه، اعتناقه للطريقة الناصرية التي كان لها نفوذ بين سكان سوس.[112]

(106) المعسول : مذكرات المانوزي، ج. 3، ص. 390-391.

(107) نفسه، ص. 392.

(108) المعسول، ج. 4، ص. 207.

(109) المعسول، ج. 3، ص. 397/ ج. 4، ص. 207.

(110) نفسه، ج. 4، ص. 207.

(111) Justinard : Le caïd El Goundafi, Casablanca 1952.

(112) Ibid, p. 159.

لهذا وضع تحت تصرفه طابور تيزنيت المتكون من 800 شخص، ومدفعين خاصين بالمناطق الجبلية[113]، وخلال أربع سنوات التي قضاها بسوس تمكن من بسط نفوذه على المناطق السهلية دون تدخل القوات الفرنسية إلا في الحالات النادرة، وحقق بذلك مكاسب على حساب المجاهدين في الأرجام (أيت برابيم) واشتوكن (بلفاع)، كما توغل داخل تراب إيلالن (غشت 1918)[114] وفي عدة مناسبات دخل في اتصالات سرية وعلنية مع عدد من أعيان القبائل غير الخاضعة، ويبدو أن نزوعه نحو الهيمنة، وإيمانه بجدوى العنف في عملية الخضوع[115]، هو ما حذا به خلال الفترة الممتدة ما بين فبراير-أبريل 1921 إلى التوغل في تراب قبيلة أيت وادريم[116]. وقد اقترنت محاولته لاختراق المجالات الجبلية بإجراءات دفاعية من قبل القبائل المجاهدة، التي وزعت قواتها على 3 محاور[117]:

1 - محور أيت حمد وأيت موسى أوباكو بقيادة القائد مبارك البنيراني... ؛
2 - محور إغير ملولن وميرغت بزعامة المدني الاخصاصي؛
3 - محور إيسك وتيزي.

وكانت الخطة تقتضي شغل انتباه الكنتافي بالمحور الأول، في حين تتكلف الوحدات الأخرى بالنزول إلى بسيط تيزنيت.

وعلى الرغم من التفوق الذي حققه الكنتافي في بداية الأمر بأيت أومليل[118]، إلا أن وضعه أصبح سيئا، ولم يتمكن من التحكم في الموقف العسكري لصالحه، خاصة إذا علمنا أن رد فعل القبائل المجاهدة كان سريعا وفعالا، الشيء الذي دفعه إلى التراجع صوب حصن الحسين أوعمر[119]، وطلب الإغاثة والتعزيزات من القيادة الفرنسية بأكادير.[120]

وفي هذا الإطار يجب التأكيد على حرص فرنسا تعبئة أقصى ما يمكن من الإمكانيات لصالحه رغم تباين المواقف وانعدام التنسيق بين الكنتافي وبعض القادة العسكريين الفرنسيين، وحتى قادة بعض القبائل السهلية[121]. فعلى سبيل المثال عبر رئيس مركز أكادير عن امتعاضه من تنامي قوة القائد، وكونه شكل عائقا لكل تحركاته ومشاريعه لإخضاع الجنوب[122]، وهو ما حذا بالمقيم العام إلى استدعاء الطرفين إلى مراكش[123] . وقد عبر الكنتافي في رسالة مؤرخة ب 16 أبريل 1921

(113) Ibid.
(114) Ibid, p. 169.
(115) Daugan (G) : op. cit p. 399
(116) Voinot : op. Cit p 162 + Ibid p. 182.
(117) Ibid, p. 187.
(118) Ibid.
(119) Ibid.
(120) Ibid.
(121) Daugan : op. cit p. 319.
(122) Justinard: op. cit p. 182.
(123) Ibid.

عن تقصير الحامية بأكادير في إرسال الامدادات اللازمة له[124]. وصادف هذا الظرف استرداد الحركة الجهادية لقوتها، فبتاريخ 17-04-1921 وصل إلى علمه أن القبائل المجتمعة بالجنوب (أيت باعمران) على أهبة النزول إلى بسيط أيت براييم مستغلة فراغ الجبهة الجنوبية.[125]

وعلى ضوء هذه التطورات قام الجنرال الفرنسي قائد المنطقة بزيارة ميدانية للإطلاع على الأوضاع، قرر بعدها إرسال تعزيزات مكونة من طابور تارودانت وبعض قوات المتوكي وفرسان حاحا لمساندة باشا تيزنيت، كما وصل سرب من الطائرات لنفس الغرض إلى تيزنيت تعضيدا له، إضافة إلى سفينة Au Regulus الحربية.[126] وبفضل هذا الدعم تمكن من تدارك الأمر بعد أن أجبر على التراجع إلى تيزنيت على وجه السرعة. وفي ذات الوقت أقدمت الطائرات والبارجة الحربية الفرنسية على قنبلة مواقع المجاهدين.

ومباشرة بعد تدارك الموقف الذي كاد أن ينفلت من فرنسا ومن يدور في فلكها، طرحت مسألة خلافة الكنتافي تيزنيت[127]. وهل سيكون بمقدور القبطان جوستينار القيام بهذه المهمة ؟ علما بأنه راكم تجربة ودراية بأمور المنطقة خلال المدة التي قضاها بتيزنيت، رغم اللحظات الحرجة التي كادت أن تعصف به في عدة مناسبات، لولا قوة شخصيته، وإيمانه القوي بعمله، وعلاقاته الوطيدة بأعيان المنطقة.

إجمالا وخلال أربع سنوات التي قضاها بتيزنيت، استطاع الكنتافي أن يكفي سلطات الحماية عناء التدخل المباشر بالمجالات السهلية التي عرفت هدوءا نسبيا.

V - تعيين مولاي الزين أو شرعنة الاحتلال:

أمام دهشة المستعمر في تجدد كتلة المجاهدين، واستماتتهم في الحيلولة دون اختراق المناطق الجبلية المحصنة، ثمة قناعة عامة لدى الإقامة العامة، وهي ضرورة نهج استراتيجية جديدة أكثر فعالية لمواجهة الوضع الجديد بعد إعفاء الكنتافي من مهامه بسوس. لهذا بدا لها العودة إلى التقاليد المخزنية التي تحرص على تعيين ممثل عن الأسرة الملكية في منصب خليفة على سوس ومقره تيزنيت. لهذا الغرض، وفي مستهل شهر يوليوز1921، استقر الاختيار على

(124) Ibid, p.182.
(125) Ibid.
(126) Ibid.

(127) الإكراري : روضة الأفنان، ص. 103 (ثمة اختلاف في تفسير سبب نقل الكنتافي عن سوس صيف 1921، فمحمد المختار السوسي، يرجع ذلك إلى مغامراته في منطقة جبلية حساسة (ايت وادريم) رغم معارضة الجهات العسكرية الفرنسية، بينما يرى القبطان جوستينار أن عامل السن كان وراء إقالته، أما الإكراري فعزا ذلك إلى منابذته القائد عياد الجراري ومنافرته أياه، "فهما في طرف نقيض". ومهما يكن من أمر فإن سلطات الحماية أنعمت عليه بوسام سام تقديرا لخدماته.

- Justinard : op. cit p. 169.
- Gouvion J et M : A'yan al -Maghrib al-Aksa, Paris, 1939.

مولاي الزين شقيق مولاي يوسف لتقلد هذه المهمة[128]، وكانت سلطات الحماية تراهن في ذلك على درايته بشؤون الجنوب منذ 1913 زمن ترأسه حملة كبار القياد في زحفهم على تارودانت، كما عين إلى جانبه باشا جديدا على المدينة وهو أحمد بن البشير الفاطمي (جوج كلمات) بمعية ضابط فرنسي للاستعلامات Bourguignon الذي راكم تجربة أثناء تقلده نفس المنصب بتارودانت. ومما لاشك فيه أن هذا الإجراء يروم بالأساس إعادة تمتين الارتباط المعهود والمألوف بين مؤسسة المخزن والقبائل السوسية، ومن تم الحرص على إضفاء نوع من الشرعية على مسعى فرنسا لإخضاع المناطق الجبلية، من خلال توظيف القيمة الرمزية للأمير وللمؤسسة المخزنية في مزاحمة مربيه ربه، إضافة إلى الرغبة في خلق دينامية في صفوف الطرف المخزني الذي كان يفتقد إلى الإنسجام والتنسيق كما رأينا آنفا.

للإشارة فإن الفترة الممتدة ما بين سنتي 1922-1927 تطبعها خاصية الانتظار والترقب، حيث خفت نسبيا وطأة العمليات العسكرية. ويمكن القول أننا هنا بصدد استراتيجية للتريث لا تخلو من ذكاء، فالمحتل اقتنع بأن تكسير مقاومة جبال الأطلس الصغير لن يتأتى إلا بنهج سياسة تزاوج بين العمل السياسي والعمل العسكري.

وضمن هذه اللحظة التاريخية تندرج معالم كبرى تختصر إلى حد ما علاقة فرنسا بهذه المنطقة، وتتحدد أساسا في:

- تكثيف الاتصالات مع بعض رموز الجهاد: من الواضح أن المفاوضات السرية والعلنية التي باشرتها فرنسا مع بعض رموز المقاومة لم تتوقف منذ خروج الهيبة من مراكش[129]، فطيلة مراحل مغامراتها العسكرية بسوس، حرصت عبر بعض أعيان وقادة القبائل على الاتصال بزعماء الجهاد أو استدراج بعض ممثلي المخزن المحلي[130]. وقد أبان بعض الوسطاء على مقدرة وحنكة في

---

(128) Daugan: op. Cit, p: 396-400
- Gouvion : op. Cit.

(129) في سياق مسعاها لاقتلاع جذور المقاومة بسوس، بادرت فرنسا إلى فتح مفاوضات سرية مع الهيبة منذ 1913 عبر عدة قنوات، ويبدو أن الشيخ قد قدم مقترحات جريئة أغرت ليوطي، الذي تحمس لها مبدئيا، "لصيانة الأمن وتهدئة الخواطر". والحال أن الدوائر العليا بباريس قد أبدت معارضتها لهذا الأمر، واعتبرت أن تحويل النفوذ الروحي للهيبة إلى سلطة زمنية يشكل تهديدا وخطرا على مصالح فرنسا.
- المعسول، ج. 4، ص. 180-181.
- Daniel Rivet : op. cit.

(130) كما هو الشأن بالنسبة للقائد الحاج أحمد التمنارتي قائد تمنارت وزعيم إيليغ علي بن محمد الإيليغي اللذان دخلا في مفاوضات مبكرة مع سلطات الحماية، دون أن يحددا موقفا نهائيا من مسألة الاحتلال، ومرد ذلك على ما يبدو إلى استحالة قطع الروابط والصلات مع الحركة الجهادية التي مازالت متأججة، وتتمتع بقاعدة قبلية واسعة حتى في المجالات التي يراقبونها.
- شفيق أرفاك : إشكالية الإزدواجية بين المقاومة والاستعمار: نموذج القائد التمنارتي 1912-1930، مجلة الذاكرة الوطنية، عدد 2002/3، ص. 59.
- Dugard : op. cit p. 278

الإقناع من خلال استعراض تجليات سطوة المخزن (الحماية) والتلميح إلى مظاهر القوة، مما يعني استحالة منازعة أو مناطحة الاحتلال(131).

• دور ضباط الشؤون الأهلية في اختراق جسم المقاومة: في ذات السياق يبرز دور الإدارة العسكرية الفرنسية المحلية أي ما يعرف بضباط الشؤون الأهلية(132)، خاصة المستمزغين منهم، ممن لهم دراية بلغة وعادات المنطقة (جوستينار، بوركينيون)، وقد حرص هؤلاء على الاحتكاك المباشر بالسكان والبحث عن مواطن قدم لهم في البناء القبلي المحلي. وقامت سلطات الحماية بشحذ وإذكاء القدرات التفاوضية لهؤلاء وتمكينهم من الإمكانيات لإنجاح مهامهم المتمثلة في :

أ) – الإشراف على الاتصالات مع قادة القبائل، كتلك التي باشرها علي بن محمد الإيلغي ومولاي الزين مع مربيه ربه(133)، حيث ركنت إلى أسلوب الإغراء، بيد أن الشيخ بقي وفيا لمبدئه، مقتنعا باستحالة التوصل إلى حل مقنع مع الفرنسيين.(134)

ب) – إثارة النعرات القبلية، والبحث عن مواطن الانقسام والتصدع في العلاقات بين القبائل (حالة الصراع بين المدني الاخصاصي وسعيد المجاطي)(135)، وقد اعترف الشيخ مربيه ربه بهذه الحقيقة في عدة رسائل موجهة إلى أعيان وعلماء المنطقة(136).

ج) – إضعاف الخصم بواسطة العملاء، ومحاولة تسريب الجواسيس والمخبرين في محيط كردوس، لجمع المعلومات عن خطط القبائل الجبلية(137). وفي هذا الصدد تمكن أتباع مربيه ربه من اعتقال جاسوسين فرنسيين من الوحدة الأجنبية الرابعة للمشاة، وتم إحضارهما إلى كردوس؛

د) – استعمال سياسة الإشاعات في حق بعض رموز المقاومة، كما هو الحال بالنسبة للشيخ مربيه ربه، وذلك للتأثير سلبا على حركته(138).

هـ) – تنظيم زيارة رسمية لوفد من كبار الأعيان الموريطانيين لتيزنيت ما بين 10-16 غشت 1922(139)، كإجراء يراد به التماهي والرغبة في الظهور بمظهر القوي الذي لا يقهر،

(131) شفيق أرفاك: م. س.

(132) اختزل الكولونيل Berrian دور ضباط الشؤون الأهلية في قوله "كانت الخطة المرسومة لضابط الشؤون الأهلية هو أن يتجه أولا للرؤساء المعترف بهم في القبيلة، فيثير أطماعهم، ويعمل على ربطهم به بواسطة المصلحة أو الطموح أو بذل المال... ويعمل على تفكيك الفرق المراد إخضاعها بواسطة صراعات الأطماع والمصالح، وبذلك يكون قد جزأ وأضعف الفرق المقاومة في القبائل."

- Berrian (col) : l'officier des renseignements au Maroc, Rabat, 1918, p.7.

(133) المعسول، ج. 4، ص. 267.

- Bernard (M) : les opérations de pacification de l'anti-Atlas. In : la géographie, Février 1934, p: 28 - 29.

(134) أحمد بومزكو والنعمة ماء العينين، مرجع سابق.

(135) كادت هذه الوضعية أن توسع الشرخ بين صفوف المقاومة لما اتهم القائد سعيد البنيراني غريمه القائد المدني بالتواطؤ مع الاستعمار، المعسول ج. 3، ص. 317-318.

(136) يتراءى ذلك في عدد من المراسلات التي كان يرسلها الشيخ إلى أعيان وقادة القبائل (رسائل مربيه ربه).

(137) أحمد بومزكو والنعمة، مرجع سابق.

(138) أنظر على سبيل المثال : رسالة الشيخ مربيه ربه إلى علي بن محمد الإيليغي، 29 شوال 1344.

(139) Daugan : op. cit p. 397

وتسخير هؤلاء لتثنية الشيخ مربيه ربه عن معاداة فرنسا. كما تم توظيف جولات مولاي يوسف (نونبر 1926 - أكتوبر 1927) لإضفاء الشرعية على سياسة فرنسا لاختراق الجيوب الجبلية المتبقية، واستقطاب رموز المقاومة.(140)

• رد فعل القبائل : الواضح أن الهم الأساسي لإدارة الاحتلال هو إحكام السيطرة على معاقل المقاومة والوصول إلى عمق القبائل لتطويقها وإخضاعها، خاصة وأن هذه البقاع الجبلية تعتبر آخر المعاقل المحصنة التي ترفض الاحتلال، لهذا تطلب الاستعداد والتهييئ للإجهاز على الجبال، وضع خطة دقيقة في الزمان والمكان. وقد استؤنف هذا المشروع باحتلال الجيوب الواقعة جنوب شرق تارودانت (إيلالن، إيسافن... (141)) قصد شد الطوق على الأطلس الصغير.

وقد أجج هذا الإجراء شعور المجاهدين، حيث وقع استنفار قوات المجاهدين من أيت باعمران مرورا بمجاط وأمانوز وحتى أملن.(142) وتزامنت حدة الاشتباكات مع فترة الحرث بين شهري شتنبر وأكتوبر 1923(143)، وخلال ذلك عبأ الشيخ مربيه ربه كل الطاقات القبلية المحلية لإبطال مفعول الخطة المخزنية، وهكذا ولتمكين المجاهدين من الآليات الضرورية لمدافعة الاحتلال ولتقوية قدراتهم القتالية قام سنة 1922 بجولة قادته إلى عدة مواطن بالأطلس الصغير، صحبة ثلة من فعاليات الجهاد من أمثال : القائد المدني والقائد سعيد المجاطي والفقيه علي بن عبد الله الإلغي والطاهر الافراني والمحفوظ الأدوزي وسعيد بن بهوش الأكماري وإبراهيم أحريشي السملالي "... توجت بتجميع مساهمات القبائل(144). وفي ذات الوقت كانت المعونات بما في ذلك الأعشار والزكوات والأموال تشحن بشكل منتظم نحو كردوس. وقد أحدث في أيامه سنة تمشى عليها، وهي دورة سنوية تؤدي فيها كل أسرة ريالا حسنيا مغرما واجبا، ولرؤساء القبائل في ذلك حظ فيلزمون الناس حتى يؤدوا ذلك مع الضيافات والهدايا، فيجمع آلافا في دورة" (145).

كما أضحى مستقر الشيخ مربيه ربه بكردوس مركزا حربيا لقادة الجهاد آنذاك(146)، حيث شهد طيلة الفترة الممتدة ما بين 1919-1934 عدة اجتماعات تنسيقية لترتيب الخطط التنظيمية والحربية للجهاد.

---

(140) الإكراري : مرجع سابق، ص. 104.

(141) Bernard (R) : op.cit
- Daugan: Op. cit p. 401.

المعسول، ج. 3، ص. 396.

(142) المعسول، ج. 3، ص. 396/ج. 16، ص. 184.

(143) نفسه.

(144) أحمد بومزكو والنعمة ماء العينين، مرجع سابق.

(145) المعسول، ج. 4، ص. 250.

(146) مادة كردوس، معلمة المغرب، ج. 19.

والحاصل أن مسغبة 1926[147]، التي كانت لها آثار سلبية على ساكنة الجبال بالخصوص، قد كبلت إلى حد ما عمل المقاومة التي افتقدت لحمتها وصلابتها. وقد استغلت فرنسا هذا المصاب في تضييق الخناق على المجالات الجبلية، وباشرت في احتواء قبائل إيداوتنان، اشتوكن الجبلية، وأيت وادريم، وأيت موسى أوباكو، ومركز إغرم...[148]

خاتمة:

نرى بأن هذه العودة إلى محطة بارزة من تاريخ سوس في بداية القرن 20، يشكل مناسبة للتأكيد على ذلك الشعور الفطري لدى القبائل السوسية باستقلالها، والاستماتة في الدفاع عن ذلك، وهذا ليس معناه بالضرورة أن الأحداث والتطورات التي شهدتها المنطقة كانت في منأى عما يقع بباقي جهات المغرب. وقد شددنا على كلمة الجهاد كامتداد طبيعي وتاريخي للحمية التعبوية التي أصبحت من ثوابت تاريخ المنطقة، ومحصلة الخبرة التي تراكمت على الأقل منذ القرن 16.

ونعتقد أن ما قدم ليس إلا نتفا مبعثرة، وأن الكثير من أشكال الجهاد والمقاومة المحلية لم تدرس بعد، وهو ما يدفع إلى الإقرار بأننا، إنما نؤسس للإطار العام الذي يؤطر ملاحم وبطولات القبائل في الفترة الممتدة ما بين 1912-1927، في أفق الإلمام والإطلاع المتأني على مظان الوثائق والتقارير المحلية والدولية.

(147) ثمة قصيدة للشاعر الحاج بلعيد يصور من خلالها الأثر السلبي الذي خلفته مجاعة 1926 على نفسية السكان ووضعيتهم المادية والاجتماعية.

-أحمد بومزكو: قراءة في تاريخ سوس من خلال شعر الحاج بلعيد، ندوة الحاج بلعيد. تيزنيت 1989.

(148) Bernard (M) : op.cit.

المقاومة بالصحراء المغربية بين قساوة الظروف الطبيعية والدفاع عن الهوية المغربية

ذ. نور الدين بلحداد
معهد الدراسات الإفريقية -الرباط

أود في البداية أن أعبر عن مدى سعادتي بالمشاركة في هذا اليوم الدراسي الذي ينظمه مركز الدراسات التاريخية والبيئة التابع للمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية. وأتمنى النجاح والتوفيق لكل الأعضاء الساهرين على تنظيم هذا اليوم الدراسي.

الحديث عن المقاومة بالصحراء المغربية يتطلب معرفة الظروف الطبيعية والأراضي التي جرت فيها سلسلة الحروب والمعارك، التي يحلو للصحراويين تسميتها بالغزي. ولهذا ارتأيت أن أقسم هذه المداخلة المتواضعة إلى ثلاثة أقسام: قسم مخصص للحديث عن المعطيات الطبيعية السائدة بالصحراء، والقسم الثاني، وأظنه هام ويتطلب التوقف عنده، ويتعلق بمصادر الأسلحة التي اعتمدتها المقاومة الصحراوية لمواجهة الأخطار الأجنبية، والقسم الأخير خصصته للحديث عن مراحل المقاومة بالصحراء.

وأرجو من الله أن يوفقني لإعطاء صورة متكاملة عن الأحداث البطولية التي كانت الصحراء مسرحا لها خلال عدة سنوات .

1 - المعطيات الطبيعية بالصحراء:

- الأشكال التضاريسية:

تمتاز الوحدات التضاريسية السائدة في الصحراء بالانبساط وقلة الارتفاع، وتتخللها مجموعة من السهول والهضاب المنخفضة، وعدة كثبان رملية تغطي أغلب المناطق الساحلية[1].

(1) Jean Despois et René Raynal, Géographie de l'Afrique du Nord-ouest, Ed. Payot, Paris, 1975, p 476.

وتنقسم هذه الوحدات التضاريسية إلى أربعة أقسام هي:

- **منطقة ظهر الرقيبات :**

تقع في الجهة الشرقية لمنطقة وادي الذهب، وهي عبارة عن سهل واسع يبلغ طوله 1400 كيلومتر، وعرضه ما بين 150 و 400 كيلومتر. ويشمل هذا السهل كل المناطق الواقعة بين مدينة لكَويرة ومدينة السمارة.[2] وتنتشر فوقه مجموعة من الصخور الصلبة كالشست والكوارتز. وتظهر فوق هذا السهل أراضي محدبة يصل ارتفاعها إلى حوالي 400 متر، يطلق عليها السكان اسم الكَلب[3].

- **منطقة الحمادة:**

تقع في الشمال الشرقي لمنطقة الساقية الحمراء، تنتشر بها هضاب كلسية قاحلة، نخرتها الوديان تحت تأثير الرياح القوية ودرجات الحرارة المرتفعة[4].

وتغطي هذه الهضاب كل المناطق الواقعة بين درعة والساقية الحمراء في الشمال، ومنطقة كَلتة زمور الواقعة في شرق وادي الذهب. وتكثر بها الأحجار الحصوية وبعض الصخور الصلبة العارية من كل غطاء نباتي أو ترابي[5].

وترتفع هضاب الحمادة بحوالي 350 مترا عن سطح البحر. وتمتاز أراضيها بالانبساط، لكن تقل بها الآبار والعيون، وتنتشر فوقها طبقة من الحصى تعيق الإنسان والحيوان عن المشي فوقها[6].

- **منطقة الكَعدة:**

تنحصر بين وادي الساقية الحمراء في الجنوب، والحمادة في الشرق، وجبل زيني في الشمال، والمحيط الأطلسي في الغرب[7].

وتنتشر بها هضاب كلسية واسعة تبعد عن البحر بحوالي 4 كلم، ولا يتجاوز ارتفاعها 200 متر، الشيء الذي يساعد على جريان مائي موسمي، وظهور بعض النباتات الشوكية مثل السدّرة، التي يستغلها السكان لرعي ماشيتهم.

---

(2) نفسه، ص. 476.

(3) Galo Bullon diaz, Notas sobré géografia humana de los terrirorios de ifni y del sahara, Madrid 1945, p. 251.

(4) عبد العزيز بنعبد الله، الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية، الرباط،1977، ص. 184 .

(5) Angel flores Morales, El sahara Espanol, Madrid , 1946, p. 43.

(6) P. Vnegue, le Sahara Marocain et ses limites, Paris, 1929, p. 43.

(7) Vincent Monteil, notes sur les tekna, Paris, 1948, p. 28.

• منطقة السهل الساحلي :

وتشمل كل سواحل الصحراء المغربية. وتتكون من إرسابات تنتشر فيها كثبان رملية، وأحواض رسوبية (سبخة الطاح).

وبسبب عوامل التعرية ظهرت على طول هذه السواحل سلسلة من الشواطئ الصخرية المتموجة، وبعض الخلجان، والأجراف الصخرية مثل: **رأس نون، رأس جوبي، رأس بوجدور.**

ويحتضن السهل الساحلي، شبه جزيرتين هامتين هما:

- شبه جزيرة الداخلة: يبلغ طولها 40 كلم، وعرضها ما بين 3 و 6 كلم، تتخللها كثبان رملية وتحتضن مدينة الداخلة.
- شبه جزيرة الرأس الأبيض: يبلغ طولها حوالي 45 كلم، وعرضها حوالي 7 كلم [8].

■ المناخ:

يمتاز المناخ السائد في الصحراء بالجفاف، لذلك فالأمطار تكاد تكون نادرة أو شبه منعدمة. والسبب في ذلك عدم وجود تضاريس تمنع تسرب الكتل الهوائية الممطرة. إضافة إلى هبوب رياح قوية قد تصل سرعتها إلى حوالي 200 كلم في الساعة[9]. وتكون درجات الحرارة في المناطق الداخلية جد مرتفعة قد تتجاوز في بعض المناطق معدل 50 درجة في فصل الصيف. بالإضافة إلى هبوب رياح جافة وساخنة تسمى الشوم لا يطيقها الإنسان ولا الحيوان[10].

وقد تسببت هذه الرياح سنة 1815 في هلاك قافلة تجارية كانت متجهة نحو أسواق تافيلالت، وتبخرت كميات الماء التي كان يحملها أصحاب القافلة. هذا بالإضافة إلى انتشار زوابع رملية، تؤدي إلى طمس معالم الآبار ونقاط الماء التي يستغلها الإنسان والحيوان [11].

■ الهيدروغرافيا:

يشكل الماء أهمية كبيرة في الحياة الصحراوية، وذلك بسبب قلة المجاري المائية وطبيعة الأراضي المنفذة لمياه الأمطار المتساقطة على الرغم من ضعفها.

تنقسم المصادر المائية الموجودة بالصحراء إلى قسمين:

- قسم يعتمد فيه السكان على مياه بعض الأودية الموسمية مثل وادي الساقية الحمراء الذي ينبع من بئر الفارسية الموجودة في مرتفعات الحمادة، ويصب في البحر المحيط[12]. ثم هناك وادي الخط الذي ينبع من مرتفعات كَلتة زمور.

(8) Aguirre del Castillo, güera vigia del sur Ceuta, 1949, p. 449.
(9) Robert Rezette, le Sahara occidental et les frontières marocaines, Paris, 1975, p. 23.
(10) Julio cervera, expédition al Sahara occidental (de Rio de ORO à iyil) Madrid, 1886, p. 6.
(11) عبد الهادي التازي، ساحل إفريقيا الغربي، سوس وادي نون الصحراء، الرباط، 1980، ص.103.
(12) A. F. Morales, op. cit, p. 52.

- أما القسم الثاني، فيعتمد فيه السكان على استغلال مياه الآبار، وذلك رغم تباعد بعضها عن بعض بمسافات طويلة قد تتعدى في بعض المناطق 300 كلم[13] بالإضافة إلى مشكل آخر يتمثل في عدم صلاحية مياه أغلب هذه الآبار بسبب ملوحتها التي تتراوح بين 4 و 7 غرامات في اللتر الواحد.

ومن أهم آبار منطقة وادي الذهب نذكر، بئر الزوكَ، تشلا، الكندوز، أوسرت. ومن أهم آبار الساقية الحمراء بئر لَحلُّو، وبئر الفارسية.

كما يستغل السكان مياه بعض السبخات لإقامة بعض الزراعات، ورعي الماشية. وبصفة عامة، فإن مصادر الماء بالصحراء غير كافية للشرب، لذلك عوضها السكان بشرب حليب النوق[14].

2 - مصادر أسلحة القبائل الصحراوية:

يمكن أن نحدد مصادر أسلحة القبائل الصحراوية في ثلاثة مصادر:

- مصدر تجاري : حيث كانت تتم عملية البيع والشراء للأسلحة في أسواق المغرب وأسواق إفريقيا الغربية.
- مصدر مخزني : كان يتمثل في المساعدات الحربية المتكونة من البنادق والذخيرة التي كان يبعثها السلطان المغربي لرعاياه بالصحراء للدفاع عن سواحل بلاده الجنوبية وللتصدي لمشاريع الأجانب الاستعمارية .
- مصدر أجنبي: وبالتحديد من أوربا الغربية وخاصة من بعض الدول المناوئة لفرنسا مثل ألمانيا التي كانت تزود القبائل الصحراوية بالأسلحة والعتاد الحربي لمعاكسة مشاريع فرنسا بالجنوب المغربي ومن جزر الكناريس التي كان صيادوها يمنحون الأسلحة والذخيرة الحربية لقبائل الصحراء، مقابل السماح لهم بصيد السمك في سواحلهم.

ولإعطاء المزيد من التوضيحات عن المصدر الأول الذي كان يوفر الأسلحة للقبائل، نقول بأن قبائل الصحراء أغلبها رحل ولذلك كان لازما عليهم حمل السلاح إما للدفاع عن أنفسهم أو ضد القبائل الأخرى التي تحاول منافستهم في انتجاع المراعي الخصبة واستغلال نقاط الماء المتناثرة، أو استغلال الأراضي الفلاحية التي يطلق عليها السكان إسم "لكَرارة"[15]. فمثلا قبائل أولاد دليم كانت تضم 800 محارب في بداية القرن 20 ، مسلحين بأسلحة عصرية حصلوا عليها من خلال مبادلاتهم التجارية مع صيادي جزر الكناريس[16]. أما أبناء قبيلة الرقيبات الذين

(13) محمد الغربي، الساقية الحمراء ووادي الذهب، ج. 1، الدار البيضاء، 1975، ص. 43.

(14) Angel Domenech lafuente, Colonia de Rio de ORO las tribus, Tanger, 1945, p, 172.

(15) Angel donenech lafuente, op. cit, p, 173.

(16) Paul Marty, le Sahara espagnol (Rio de ORO), Paris 1921, p. 73.

اشتهروا بشجاعتهم، فقد اضطروا إلى حمل السلاح لفرض نفوذهم على القبائل الأخرى التي كانوا ينتجعون مراعيها الخصبة خاصة قبائل كنتة بموريتانيا وتجاكانت بتندوف وأولاد دليم بمنطقة وادي الذهب وأولاد بوسبع كذلك[17]. أما قبيلة أولاد بوسبع فقد اشتهر أبناؤها بشدة بأسهم وبتقاليدهم الدفاعية والاستماتة في الحروب الشيء الذي جعلهم ينعتون بـ"رؤوس الرماح" عند المحاربين الشنقيطيين[18]. وكانوا يتوفرون على أسلحة حربية عصرية تتجاوز 1200 بندقية حديثة، وقد وصف الشنقيطي قوتهم بقوله : "..وكان أولاد أبي السباع مسلحين بسلاح جيد، يصل رصاصه من مسافة بعيدة، لا يصل منها رصاص غيرهم من أهل تلك البلاد، لأن سلاحهم يأتيهم من سوس، وأما سلاح غيرهم فإنه رديء يأتيهم من فرنسا..."[19].

كما كانت بعض القبائل الصحراوية، التي تقطن الساقية الحمراء، تتوفر على أسلحة عصرية استطاعت بواسطتها الدفاع عن سواحل المغرب الجنوبية ومنع رسو السفن الأجنبية في هذه المناطق، ونذكر منها قبيلة العروسيين التي كانت تتوفر على حوالي 250 بندقية [20] وقبيلة ازركيين التي تملك حوالي 700 بندقية [21]. أما قبيلة آيت لحسن فقد كانت توفر الحماية اللازمة لأصحاب القوافل التجارية الذين يزورون أسواق وادي نون لعقد صفقات تجارية [22].

ونفس الشيء بالنسبة لقبيلة آيت أوسى التي كانت تتوفر على حوالي 1000 بندقية وأكثر من 100 من الخيول الجيدة المخصصة للحرب، خاصة وأنها كانت في نزاع دائم حول المراعي الخصبة مع قبيلة آيت لحسن وقبيلة إزركيين[23]. ثم هناك قبيلة آيت موسى التي تعتبر من أهم القبائل المحاربة في بلاد تكنة لأنها كانت تملك أزيد من 1200 بندقية [24].

أما المصدر الثاني للحصول على الأسلحة، فقد كان يتمثل في تلك المساعدات التي كان المخزن المركزي يبعثها لقبائل الصحراء لمواصلة جهادهم ضد الأجانب. وقد شكلت هذه المساعدات مصدر نزاع دبلوماسي بين المغرب وفرنسا، وكانت محط عدة رسائل متبادلة بين الطرفين، حاولت فرنسا من خلالها إرغام المخزن المغربي على قطع علاقاته وصلاته مع قبائل الصحراء، والكف عن تزويدها بالسلاح، أما السلطان المغربي فقد رفض هذه الاحتجاجات الفرنسية وقرر مواصلة تسليح رعاياه في الجنوب للدفاع عن بلادهم وعن أنفسهم، ونشير في

(17) Lauzanne (commandant), une reconnaissance au Sahara occidental, Paris, 1921, p, 366.

(18) مولاي الحسن كفناني، قبيلة أولاد أبي السباع في القرن 19، دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سنة 1987-1988، ص. 277.

(19) أحمد بن الأمين الشنقيطي، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، القاهرة، 1958، ص. 509.

(20) A. lechatelier, Tribus du sud-ouest marocain. Paris, 1981, p. 9.

(21) F. de la chapelle, les tekna du sud Marocain. Paris, 1934, p. 88.

(22) F. de la chapelle, op. cit, p. 31.

(23) A. le chatelier, op. cit, p. 9.

(24) A. le chatelier, op. cit, p. 9.

هذا الصدد إلى الرسالة التي بعثها السلطان مولاي عبد العزيز بتاريخ 1905/04/29، لقبيلة العروسيين، ومما قال فيها:

"... أما الوسائل التي تخصكم والعون الذي تنتظرونه منا والمصلحة التي تريدون أن نبلغها إليكم، فذلك كله من الواجبات علينا ومن الاهتمامات التي تلزمنا نحوكم..."[25].

وأمام تزايد أطماع فرنسا في احتلال بلاد أدرار ومحاولات المغامر كزافيي كوبولاني Xavier Coppolani سنة 1905، قرر الشيخ ماء العينين الخروج على رأس وفد من أعيان وشيوخ قبائل الصحراء والذهاب عند السلطان مولاي عبد العزيز لطلب المساعدات الحربية لمواجهة المد الاستعماري الفرنسي[26]. وبعد حلوله بفاس في أواخر سنة 1905 وتجديده البيعة للسلطان مولاي عبد العزيز زود السلطان الشيخ ماء العينين بكميات هامة من السلاح والذخيرة الحربية، وحثه على توحيد صفوف القبائل الصحراوية ومنع أفرادها من عقد أية صفقات تجارية مع الأجانب[27]. وللدفاع عن سواحل بلاده الجنوبية قرر السلطان مولاي عبد العزيز إرسال وفد مخزني برئاسة ابن عمه الشريف مولاي إدريس بن عبد الرحمن إلى الصحراء، وزوده بكميات هامة من السلاح والذخيرة الحربية تقدر بحوالي 2500 بندقية و 16 صندوقا من الخرطوش[28].

كما بعث السلطان في أواخر سنة 1906 مائة بندقية للشيخ ماء العينين لمواصلة العلميات الجهادية ضد المراكز الفرنسية في بلاد شنقيط[29]، فاحتجت فرنسا بواسطة قنصلها Gaillard Henry بفاس، وهددت السلطان باستعمال قوة السلاح إن هو تمادى في إرسال السلاح للقبائل الصحراوية، وأرسلت سفينتها الحربية Le kleber إلى ساحل طرفاية لمنع رسو المراكب المخزنية المحملة بالسلاح، وتوصلت بمعلومات من طرف قنصلها بالعرائش Jeannier الذي بعث رسالة إلى وزير فرنسا بطنجة Regnault سنة 1907، مفادها أن السلطان بعث حوالي 125 صندوقا من البندقيات و145 من الذخيرة الحربية للشيخ ماء العينين لمهاجمة المراكز الفرنسية[30]. وفي عهد السلطان مولاي عبد الحفيظ ضاعف المخزن المغربي من مجهوداته لمساعدة المقاومين بالصحراء على التصدي لمشاريع فرنسا وإسبانيا، وهكذا نجد مولاي عبد الحفيظ يأمر أمناء الصويرة وآسفي ومراكش بتخصيص قدر من المال وإرساله كل شهر للشيخ ماء العينين لمساعدته في جهاده ضد الأجانب[31]. فاضطرت فرنسا إلى الاعتماد على وسائلها

(25) ابن عزوز حكيم، السيادة المغربية في الأقاليم الصحراوية من خلال الوثائق المخزنية، الدار البيضاء، 1981، ص. 220.

(26) S, El Hiba, fils de Ma-al-aïnin. Paris, 1917, p, 64.

(27) الحسن بوعشرين، التنبيه المعرب عما عليه الآن حال المغرب، مطبعة المعارف الجديدة، 1994، ص. 248.

(28) R-S, op. cit, p. 64.

(29) وثائق وزارة الخارجية الفرنسية، المحفظة رقم 608، مجموعة المغرب، مراكش، فرنسا.

(30) Documents Diplomatiques Française, T : 3 années 1906-1907. Paris, 1907, p. 178.

(31) وثائق وزارة الخارجية الفرنسية، المحفظة رقم 350، مجموعة المغرب، طنجة، فرنسا.

العسكرية للرد على هجومات القبائل، فقامت باحتلال بلاد أدرار سنة 1909، وفرضت حصارا قويا على سواحل المغرب الأطلسية انطلاقا من العرائش إلى طرفاية لمنع رسو المراكب المخزنية (التريكي والحسني) المحملة بالسلاح للمقاومين الصحراويين[32]. وبعد فرض معاهدة الحماية على المغرب في 30 مارس 1912 ستفقد القبائل الصحراوية ذلك المساعد القوي الذي ظل يمدها بالسلاح والذخيرة، ألا وهو السلطان، ولكنها لم تستسلم بل ظلت وفية لبيعتها وهويتها المغربية، واعتمدت على وسائلها التقليدية لمواجهة أسلحة فرنسا وإسبانيا المتطورة والعصرية، وظلت تقاوم إلى حدود سنة 1934، واستسلمت بعد نفاذ ذخيرتها الحربية ومحاصرتها من طرف الجيوش الفرنسية والإسبانية من الجنوب ومن الشرق .

ويخصوص المصدر الأجنبي والمتمثل في دول أوربا الغربية، فإننا نخص بالذكر بعض المساعدات الحربية التي عرضتها ألمانيا سنة 1916 بواسطة قنصلها السابق بفاس (Probster) الذي حاول نقل كميات هامة من السلاح والذخيرة الحربية (6000 بندقية، ثلاث رشاشات، مدفع واحد، عدة صناديق من المفرقعات، بالإضافة إلى مبالغ مالية ضخمة)، لأتباع الشيخ أحمد الهيبة لعرقلة مشاريع فرنسا التوسعية في الجنوب المغربي والدخول تحت الحماية الألمانية[33].

كما كانت قبائل الصحراء تحصل من صيادي جزر الكناريا على بعض الأسلحة مقابل السماح لهم بمزاولة عمليات الصيد البحري في سواحلهم، ولذلك تدخلت الحكومة الإسبانية وأصدرت قرارا صارما في 22 غشت 1899، منعت بموجبه تهريب الأسلحة إلى قبائل وادي الذهب[34]. وأصدرت قرارا آخر في 25 مارس 1907، منعت بمقتضاه سكان جزر الكناريا من تصدير الأسلحة للقبائل الصحراوية، وحذرت فيه أيضا أصحاب السفن والمراكب المخصصة للصيد، سواء كانوا إسبانيين أو أجانب، بأنها لن تتهاون في تطبيق مضمون المادة الثانية من بنود مؤتمر الجزيرة الخضراء التي نصت على احتجاز كل سفينة تقوم بنقل السلاح إلى قبائل الجنوب المغربي[35].

ونشير في الأخير إلى أن قبائل الصحراء كانت تحصل على الأسلحة كذلك من تجارة تهريب السلاح التي كانت نشيطة مع جزر الكناريا وجزر الآصور والرأس الأخضر، كما أنها كانت تستغل عمليات إطلاق سراح بعض الطيارين الإسبان أو المغامرين الذين يقعون في أيدي محاربيها مقابل مبالغ مالية ضخمة، تخصصها لاقتناء الأسلحة واللوازم الحربية التي تساعدها على التصدي للجيوش الاستعمارية بالصحراء إسبانية وفرنسية[36].

(32) A.G.P. Martin, quatre siècles d'histoire Marocaine, au Sahara de 1504 à 1902, au Maroc de 1894 à 1912, Paris, Leroux, 1923, p. 538.
(33) R-S, op. cit, p, 91.
(34) وثائق وزارة الخارجية الفرنسية، المحفظة رقم 634، مجموعة المغرب، مراكش، فرنسا.
(35) Documents Diplomatiques Française, T : 3 : Année 1906-1907. Paris, p. 243.
(36) Albert Lebrun, La question du Rio de oro. Paris, 1929, p. 17

3 - مراحل مقاومة قبائل الصحراء المغربية:

تعود أصول مقاومة قبائل الصحراء ضد التسرب الأجنبي إلى أواخر القرن الخامس عشر، إذ حاول بعض المغامرين الإسبان ويدعى Diego Garcia de Herrera، احتلال بعض سواحل المغرب الجنوبية، وتوصل هذا المغامر إلى بناء كوخ خشبي في المناطق الواقعة بين رأس نون ورأس بوجدور سنة 1476، أطلق عليه إسم Santa cruz de Mar Pequena.[37] وفي سنة 1478، هاجمت قبائل المنطقة هذا الحصن وأرغمت الحامية العسكرية المكلفة بحراسته على التحصن بداخله وضربت عليها حصارا قويا، فأرسلت سلطات إسبانيا بجزر الكناريا س مساعدات حربية لفك الحصار المضروب على جنودها (600 جندي و5 سفن حربية). كما حاول مغامر آخر ويدعى Alonso Fermandez de lugo، وهو حاكم إسبانيا بجزيرة تنريف Tinerif، احتلال بعض المناطق الصحراوية، وقرر بناء ثلاثة حصون في كل من رأس بوجدور ووادي نون وبالقرب من مدينة تكاوست، فتصدت له قبائل المنطقة وهزمته في معركة شهيرة تدعى (هزيمة المنارات)، التي جرت بالقرب من وادي أساكا[38].

ولتحقيق سبق استعماري أمام المنافسة البرتغالية رخص الملك الإسباني لسكان جزر الكناريا س بالقيام بحملات عسكرية في المناطق الواقعة بين ماسة وسواحل وادي الذهب، لكن قبائل الصحراء تصدت لهذه المحاولات سنة 1505 م، وهاجمت من جديد حصن سانتا كروز دي ماربيكينيا سنة 1517 وكادت أن تفتك بالحامية العسكرية الموجودة به، لولا المساعدات التي تلقاها الحاكم العسكري به (Lopez de Sosa) من سلطات جزر الكناريا س[39]. وعلى الرغم من المساعدات الحربية التي أرسلتها جزر الكناريا س إلى حاكم حصن سانتا كروز دي ماربيكينيا، فقد تمكنت قبائل الصحراء من القيام بهجوم قوي ضد هذا الحصن سنة 1524، وأضرمت النار في منشآته وخربتها وفر باقي الجنود الإسبانيين إلى جزر الكناريا س[40]. ومنذ هذا التاريخ ظلت إسبانيا تتحين الفرصة لمطالبة المخزن المغربي بالسماح لها بإعادة بناء حصن سانتا كروز دي ماربيكينيا. لكن السلاطين المغاربة لم يستجيبوا لهذا الطلب إلى حدود سنة 1860، إذ التزم المغرب بموجب المادة الثامنة من معاهدة 1860، التي وقعها بعد انهزامه أمام إسبانيا في حرب تطوان، بالترخيص لإسبانيا ببناء مركز للصيد البحري في نفس المكان الذي أقيم فيه حصن سانتا كروز دي ماربيكينيا.

(37) P de cenival et F. de la chapelle, Possessions espagnoles sur la côté occidentale d'Afrique. Santa-Cruz de Mar Pequena et ifni. Paris, 1935, p. 40.

(38) محمد بن عزوز حكيم، محاولات البرتغاليين والإسبانيين في الطرق البحرية منذ القرن الخامس عشر، الرباط، 1974، ص. 2.

(39) P. De Cenival et F. de la chapelle, op. cit, p, 52.

(40) Paul Pascon, les ruines d'Agouitir de Khinifis, Provence de Tarfaya, Santa cruz de Mar Pequena, Rabat, 1963, p. 180.

وقد فتحت هذه المعاهدة شهية بعض المغامرين الإنجليز ويدعى Donald Mackenzie الذي استقر في ساحل طرفاية منذ سنة 1878، وأقام وكالة تجارية أطلق عليها اسم (Victoria) لكن قبائل الصحراء تصدت له وأرغمته على الانكماش داخل حصنه، الشيء الذي أثر على عملياته التجارية التي أصيبت بالإفلاس، فاضطر إلى التخلي عن مركزه لصالح المخزن المغربي سنة 1895 مقابل تعويض مالي قدر بـ 50 ألف جنيه[41]. ومنذ هذا التاريخ ظل السلطان يستقبل عدة وفود قادمة من الصحراء بقيادة الشيخ ماء العينين لتجديد بيعتهم له وطلب المساعدات الحربية لمواجهة أطماع فرنسا وإسبانيا في سواحل المغرب الجنوبية.

كما تصدت قبائل الصحراء عملا بأوامر السلطان مولاي الحسن الأول لمحاولات المغامر الإسباني Emilio bonelli الذي أقام بعض الأكواخ الخشبية في سواحل وادي الذهب منذ سنة 1884، وأرغمت أعوانه والحامية العسكرية المكلفة بحراسة مركز فيلا سيسنيروس (الداخلة) على الانكماش داخل الحصن وعدم المجازفة بمغادرته[42]. وتصدى أتباع الشيخ ماء العينين لمحاولات المغامر الفرنسي Xavier Coppolani الذي حاول إقناع بعض القبائل بالدخول تحت الحماية الفرنسية وتمكنت من قتله سنة 1905[43].

وبفضل المساعدات الحربية والمالية تمكن مقاومو الصحراء من شن هجومات متكررة وعنيفة ضد المراكز الفرنسية في كل من أكجوجت، وتجيكجة، وتشيت، وتاكَانت، والحوض، وأدرار، وشنقيط، بين سنتي 1905 و1906، تكبدت فيها فرنسا العديد من القتلى في صفوف جيوشها الرابطة ببلاد شنقيط وخسائر فادحة في المعدات الحربية، وازداد حنقها على السلطان وطالبته بالكف عن تزويد قبائل الصحراء بالسلاح والذخيرة الحربية، وذهب قنصلها بفرنسا Henri Gaillard إلى حد تهديد وزير خارجية المغرب عبد الكريم بن سليمان باستعمال القوة إن تكررت هجومات القبائل ضد مراكزها[44]. وفي سنة 1908 قامت القبائل الصحراوية بهجوم عنيف ضد مركز أكجوجت وقتلت حاكمه القبطان Repoux و17 جندي فرنسي آخر[45].

وهكذا قررت فرنسا الرد بعنف على هذه الهجومات ورخصت لحاكمها بالسنغال الكولنيل Gourand بالقيام بحملات عسكرية ضد قبائل شنقيط، انتهت باحتلاله لبلاد آدرار سنة 1909، فأصبحت وضعية الشيخ ماء العينين جد حرجة بالسمارة، لذلك طلب منه السلطان مولاي عبد الحفيظ تركها والمجيء للاستقرار بمدينة تيزنيت لكي لا يقع في أيدي الجنود الفرنسيين[46].

(41) Donald mackenzie, the khalifate of the west being a general discription of Morocco. London, 1911.
(42) Andress. Coll, Villa Cisneros, Madrid. 1933, p.41.
(43) R-S, op. cit. p. 63.
(44) R-S, op. cit, p. 64.
(45) Jacque Cagne, Essai sur le sentiment national dans les provinces Sahariennes Marocaines au débat du XX Siècle. Tunis, 1986, p. 25.
(46) A. G. P. Martin, op. cit. p. 513.

رغم التوقيع على عقد الحماية في 30 مارس 1912، فقد فشلت فرنسا وإسبانيا في احتلال المناطق الصحراوية، وذلك بسبب المقاومة الباسلة التي أبان عنها أبناء الصحراء، ولم يستسلموا للأجنبي إلا بعد نفاذ أسلحتهم والإحاطة بمجالهم الحيوي، وفرض حصار قوي عليهم لكي يذعنوا لأوامر المستعمر ويكفوا عن مهاجمته، ولإعطاء نظرة مستفيضة عن هذه المقاومة، ارتأيت أن أقسمها إلى ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى 1912 - 1919 :

عانت القبائل الصحراوية الأمرين بسبب الحصار الذي ضربته كل من فرنسا وإسبانيا على سواحل المغرب الجنوبية لمنعها من الحصول على مساعدات مالية وأسلحة، كما أنها أصبحت محرومة من حرية التنقل التي ألفتها منذ زمن بعيد، وأصبح لزاما عليها الحصول على إذن أو ترخيص من السلطات الإسبانية والفرنسية لانتجاع بعض المراعي الخصبة في سنوات الجفاف التي تضرب مجالها الحيوي، لكنها لم تستسلم وفضلت مواصلة المقاومة ضد المستعمر دفاعا عن نفسها وعن وحدتها الترابية.

بعد انهزام الشيخ أحمد الهيبة في معركة سيدي بوعثمان سنة 1912، واصل أتباعه جهادهم ضد الجيوش الفرنسية انطلاقا من مدينة تارودانت التي احتلوها سنة 1913.[47] كما هاجم أخوه الشيخ محمد الأغظف المراكز الفرنسية في منطقة آدرار في 10 يناير 1913، وتمكن أتباعه من قتل بعض الجنود الفرنسيين المكلفين بحراسة آبار منطقة لبويرات القريبة من مركز أطار. وللرد على ذلك قرر الحاكم العام الفرنسي بموريتانيا الليوتنان كولنيل Mouret القيام بحملة عسكرية ضد خيام الرقيبات بالقرب من آبار موريتانيا، وتوغل داخل منطقة الساقية الحمراء وخرب زاوية السمارة في 28 فبراير 1913.[48] كما ألقت سلطات فرنسا بموريتانيا القبض على أحمد ولد أحمد ولد عايدة أمير آدرار بسبب انضمامه لحركة الشيخ أحمد الهيبة[49].

وفي سنة 1914، أصاب الجفاف منطقة الساقية الحمراء ووادي الذهب فقرر شيخ قبيلة أولاد موسى من رقيبات الساحل محمد ولد الخليل عقد معاهدة سلم مع سلطات فرنسا بآدرار للسماح له ولأتباعه بانتجاع مراعي موريتانيا الخصبة، فرحب الحاكم الفرنسي بإفريقيا الغربية (William Ponty) بذلك، واشترط عليهم عدم المشاركة في أي هجوم ضد المراكز الفرنسية[50].

(47) المختار السوسي، المعسول، الجزء 4، المحمدية 1960، ص. 165.

(48) Gillier (cammd), la pénétration en Mauritanie. Paris, 1926, p. 231.

(49) الخليل النحوي، بلاد شنقيط، المنارة والعلم، تونس 1987، ص. 336.

(50) Sophie carantini, les Rgaybat (1610-1934). Paris, 1989, p. 149.

وعقد أولاد دليم معاهدة سلم مع سلطات فرنسا بمركز آطار في نفس السنة، وتعهدوا بعدم مهاجمة مراكز فرنسا، وبالمقابل رخصت لهم السلطات الفرنسية بحرية التنقل في موريتانيا[51]. وفي سنة 1916، هاجم حوالي 450 فردا ينتمون لرقيبات الساحل مركز آدرار واستولوا على قطيع هام من الإبل، فتصدى لهم الليوتنان Gimel وهزمهم في 26 دجنبر 1916[52].

وأمرت فرنسا حاكمها بموريتانيا الليوتنان كولنيل Gaden بسن سياسة التطويع تجاه قبائل الرقيبات تقوم على أساس السماح لهم بانتجاع مراعي آدرار الخصبة ومنحهم حرية التنقل والاتصال بالسلطات الفرنسية بدون أية وساطة، واشترط عليهم عدم المشاركة في أي هجوم ضد مراكزهم[53].

وفي سنة 1917، أرغم الجفاف الذي أصاب منطقة وادي الذهب قبيلة أولاد دليم على طلب السماح لهم بانتجاع مراعي آدرار. وحذا حذوهم رقيبات الشرق، الذين طلبوا من الحاكم الفرنسي على مركز آطار، السماح لهم بانتجاع المراعي الخصبة بموريتانيا، فاشترط عليهم دفع ضريبة سنوية[54].

وللرد على اتهامات فرنسا واحتجاجاتها المتكررة، قرر الحاكم العام العسكري الإسباني بالصحراء الليوتنان كولنيل Francisco BENZ احتلال الجزء الغربي من شبه جزيرة الرأس الأبيض سنة 1919.

وقام بزيارة لمركز بورت إتيان في نفس السنة للتنسيق مع الحاكم العام الفرنسي بموريتانيا الليوتنان كولنيل (Gaden) لوضع سياسة موحدة للقضاء على مقاومة القبائل[55].

وهكذا تمكن Benz في 30 نونبر 1920، من بناء مركز عسكري جديد في منطقة لغويرة المعروفة باسم لكويرة، وعين به القبطان Guzman قائدا للحامية العسكرية المكلفة بحمايته.

المرحلة الثانية 1920 - 1926 :

بعد نجاح سياسة التطويع تجاه قبائل الرقيبات، قررت فرنسا عزل موريتانيا عن المغرب وذلك سنة 1920، وإلحاقها بمستعمراتها بإفريقيا الغربية، وقررت كذلك ربط الاتصال بين وحداتها العسكرية المرابطة في الجزائر وموريتانيا لتضييق الخناق على المقاومين الصحراويين، لكن قبائل الصحراء بادرت بالهجوم على المراكز الفرنسية بموريتانيا. وهكذا قام محمد تقي الله

(51) وثائق وزارة الخارجية الفرنسية، المحفظة رقم 168، مجموعة المغرب، المكتب الدبلوماسي، فرنسا.
(52) Veuillemin Desiré, Contribution à l'histoire de la Mauritanie, Dakar, 1962, p. 22.
(53) Sophie carantini, op. cit. p. 160.
(54) Sophie carantini, op. cit. p. 161.
(55) D. Lafuenté, op. cit. p. 64.

الملقب بـ وجاه بمهاجمة المراكز الفرنسية الواقعة في منطقة الشريرك في 28 نونبر1923، وقتل الليوتنان Bedrines، وأسر بعض الجنود في منطقة بوكّرن، فتصدى له القبطان Thomé وتمكن من قتل وجاه[56]. وللثأر من ذلك قرر كل من أحمد ولد حمادي شيخ قبيلة السواعد من رقيبات الساحل وإسماعيل ولد الباردي القيام بهجوم ضد مركز تاكانت سنة 1924، واستولى أتباعهما على 200 جمل فحاول الليوتنان Chalmel التصدي لهم لكنه انهزم وجرح في المعركة التي وقعت في منطقة لقديم بالقرب من وادان[57].

وفي سنة 1925، قررت الحكومة الفرنسية التنسيق بين وحدتها العسكرية الموجودة في الجنوب الجزائري ووحداتها المرابطة بموريتانيا لمواجهة هجومات القبائل الصحراوية وخاصة هجومات قبائل الرقيبات. وللرد على هذه السياسة قرر كل من محمد المامون وإسماعيل ولد الباردي وأحمد ولد حمادي رفقة 350 من أتباعهم القيام بهجوم قوي ضد حامية عسكرية فرنسية بالقرب من منطقة التريفية، وتمكنوا من قتل 17 جندي فرنسي من بينهم القبطان (De girval)، وواصلوا هجوماتهم في نفس السنة ضد المراكز الفرنسية بآدرار.

وفي شتنبر 1925، قرر حاكم فرنسا بموريتانيا (Gaden) نهج سياسة جديدة تجاه قبائل الرقيبات أطلق عليها إسم اليد الممدودة والسلاح عند الرجل، وحث ضباطه العسكريين على عدم فرض أية ضريبة على الرقيبات أثناء انتجاعهم لمراعي موريتانيا في أوقات الجفاف الذي يصيب الساقية الحمراء ووادي الذهب، وتصدت كذلك قبائل الصحراء لمحاولات الحاكم الإسباني الجديد على الصحراء الليوتنان كولنيل Delapena الذي عوض Benz ومنعته من بناء مركز عسكري في منطقة الدورة[58].

المرحلة الثانية 1926 - 1934 :

دشنت قبائل الصحراء سنة 1926 بهجومات جديدة ضد مراكز فرنسا في بورت إتيان وكدية إيجيل وآدرار التي تعرضت لهجوم عنيف قام به كل من محمد المامون وإسماعيل ولد الباردي وأحمد ولد حمادي، فتدخل حاكم آدرار (Dufour) وانتقد سياسة بلاده تجاه قبائل الرقيبات وطلب منها السماح له بملاحقتها داخل منطقة وادي الذهب حتى لو امتنعت السلطات الإسبانية، لكن فرنسا رفضت ذلك وقررت مواصلة سياسة مسالمة مع الرقيبات، وانتقدت بشدة سياسة إسبانيا واتهمتها بالضعف وعدم قدرتها على احتلال وادي الذهب وتطويع قبائله ومنعها من مواصلة الهجومات ضد المراكز الفرنسية. وهكذا قررت الحكومتان الفرنسية والإسبانية نهج

(56) Bernard (Lieutenant), l'Adrar Mauritanien, Paris, 1926, p. 429.

(57) V. Desiré, op. cit, p. 18.

(58) وثائق وزارة الخارجية الفرنسية، المحفظة رقم 634.

سياسة مشتركة لوضع حد لهذه الهجومات، وأرسلت فرنسا بعثة عسكرية برئاسة (Beyries) إلى مدينة الداخلة سنة 1928، للتوقيع على اتفاقية مع إسبانيا، حصلت فرنسا بموجبها على حق السماح لطائرتها الحربية بملاحقة الغزاة الصحراويين جويا داخل منطقة وادي الذهب وقنبلة خيامهم[59]. كما أمرت إسبانيا حاكمها بالصحراء بالتخلي عن سياسة المسالمة إزاء القبائل ونهج سياسة حربية لإخضاعها، وأمرته بالكف عن دفع مبالغ مالية لشيوخ القبائل لأنهم يشترون بها الأسلحة لمواجهة الجيوش الفرنسية. واتفقت الدولتان كذلك على ضرورة إنشاء فرق الكَوم تعتمد على الجمال في تعقبها للقبائل المهاجمة مراكزها بالصحراء، لكن المشكلة التي اعترضت طريقهما هي الظروف الطبيعية الصعبة السائدة في هذه المناطق والتي كانت تفتك بالجمال والجنود، بالإضافة إلى سيطرة القبائل على الآبار ونقاط الماء التي تتزود منها الفرق العسكرية وقطيع الإبل[60]. ردت القبائل بقوة على هذه السياسة المشتركة بين إسبانيا وفرنسا بالصحراء، فأسقطت طائرة إسبانية بالقرب من ساحل إفني، وأرغمت الحاكم الإسباني De lapena على دفع غرامة مالية كبيرة لإطلاق سراح الأسرى رفقة الطيار Martinez[61]. كما هاجم كل من أحمد ولد حمادي وإسماعيل ولد الباردي حامية عسكرية بآدرار سنة 1930، وللرد على ذلك جهز حاكم شنقيط القبطان Le Cocq حملة عسكرية وتوغل داخل منطقة وادي الذهب وباغت خيام الرقيبات بالقرب من كلتة زمور سنة 1930.

وفي سنة 1931، هاجم محمد المامون وأحمد ولد حمادي وعلي ولد ميارة وأتباعهم مركز آطار Atar واستولوا على كميات هامة من السلاح[62].

كما تعرض مركز آدرار ومركز الحوض لهجوم قوي سنة 1932، أسفر عن مقتل 50 جنديا فرنسيا. وفي سنة 1933 شهدت منطقة وادي الذهب جفافا قويا أرغم قبائل الرقيبات على توقيع معاهدة سلم جديدة مع سلطات فرنسا بآدرار، للسماح لهم بانتجاع المراعي الخصبة. وحاولت إسبانيا في نفس السنة استغلال هذه الظروف لاحتلال ساحل إفني، لكن قبائل المنطقة تصدت لجنودها وقتلت اثنين منهم وأرغمت الباقي على العودة إلى مركزهم بطرفاية، لكن فرنسا لم يهدأ لها بال أمام تزايد الهجومات، فعجلت باحتلال واحات تافيلالت وبلاد تكنة فيما بين سنتي 1931-1934، وطوقت الخناق على قبائل الصحراء من الشرق بالجزائر، ومن الجنوب من موريتانيا، ومن الشمال من بلاد تكنة، وانضمت إليها إسبانيا واحتلت سنة 1934 ساحل إفني

(59) V. Desiré, op. cit, p. 18.

(60) وثائق وزارة الخارجية الفرنسية، المحفظة رقم 186.

(61) A. Lebrun, op. cit. p. 184.
(62) Op. cit. p. 186.

وأرسلت إليه حوالي 1250 جندي جديد و10 طائرات حربية من مدينة العرائش لتعزيز سلطاتها في هذه المناطق والتنسيق مع الجيوش الفرنسية.

وتوصل الكولنيل Fernando Capaz إلى احتلال منطقة عين النخلة وسيدي أحمد العروسي وزاوية السمارة. واتفقت الدولتان على ضرورة إنشاء فرق جديدة من الكَوم للتوغل داخل المناطق الصحراوية، وإنشاء مراكز عسكرية جديدة بالقرب من نقاط الماء والآبار لمنع القبائل من استغلالها واستسلامها بسهولة لهما. وعلى الرغم من كل هذه الإجراءات فقد واصلت القبائل الصحراوية هجوماتها ضد المراكز الفرنسية والإسبانية، الشيء الذي حتم على سلطات الدولتين الدخول في مفاوضات جديدة للبحث عن أنجع الوسائل للقضاء على شوكة القبائل، وتوصلتا إلى التوقيع على معاهدة في بئر أم غرين سنة 1934، رخصت فيها إسبانيا للجيوش الفرنسية بملاحقة القبائل الصحراوية داخل المناطق الخاضعة للنفوذ الإسباني. واستعملت كذلك الطائرات الحربية للدولتين لقنبلة خيام القبائل المحاربة، فسقط العشرات بل المئات من أرواح الأبرياء من شيوخ ونساء وأطفال، فاضطرت أغلب القبائل إلى الاستسلام للأمر الواقع، خاصة بعد نفاذ الذخيرة الحربية ومنعها من التزود بالماء من الآبار التي أصبحت محروسة بمراكز عسكرية جديدة سواء إسبانية أو فرنسية [(63)].

(63) Galo Bullon Diaz, Notas sobre geografia humana de los Territorios de ifni y del Sahara. Madrid, 1945, p. 180.

مكانة الأرياف في الحركة الوطنية

ذ. علي الإدريسي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
الرباط

مفهوم الحركة الوطنية:

بقي مدلول الحركة الوطنية، في أذهان كثير من الناس، يشير إلى النضال السياسي، الذي انطلق عند البعض، سنة 1926، عقب انتهاء حرب التحرير التي قادها محمد بن عبد الكريم الخطابي وعند البعض الآخر بصدور ظهير 16 مايو 1930، الموصوف بالظهير البربري، وانطلاق مظاهرات مضادة له في بعض المدن المغربية، كمدن سلا والرباط وفاس. وعد الكثير من المنتسبين إلى الحركة الوطنية السياسية هاتين المحطتين البداية الحقيقية لنشأة الحركة الوطنية المغربية. وذلك ما أصبح أيضا متداولا في الكتب المدرسية؛ المخلدة لكفاح الشعب المغربي ضد الاحتلال الأجنبي، وهو ما يصر عليه، كذلك، كتاب ومؤرخو الحركة الوطنية المحسوبون على الأحزاب السياسية ذات الصلة، دون أن يدرجوا العمل المسلح الذي قاده المغاربة في مختلف أرجاء المغرب؛ دفاعا عن استقلال الوطن بصفته جزءا من تاريخ الحركة الوطنية.

لكن قبل أن نتساءل عن المعايير التي استعملت لتحديد انطلاق الحركة الوطنية المغربية، وعن دور العمل المسلح الذي قام به المغاربة، وأثره على توحيد الشعور الوطني، خاصة في مرحلة الحرب التحريرية؛ المسماة بالريفية، وانبثاقه من جديد في الكفاح الذي خاضه جيش التحرير ابتداء من أكتوبر 1955، في جبال المغرب وأريافه، يجدر بنا أن نذكر ببعض المعاني العامة لمصطلح الوطنية أو القومية، كما هي متداولة في الفكر الاجتماعي والسياسي المعاصر، وهي:

- **أولا**، الاشتراك في الأصول الثقافية والتقاليد الاجتماعية والمصالح المشتركة واللغة إلى حد ما؛
- **ثانيا**، الاعتزاز بالانتساب الجماعي للوطن الواحد: أرضا مقدسة، وقيما روحية وحضارية، وعواطف اجتماعية، وتضحيات لحمت تواصل الأجيال إلى بعضها البعض؛

- **ثالثا**، الاستجابة التلقائية للدفاع عن الوطن إذا ما تعرض للخطر، أو تعرض جزء منه، والعمل على تحقيق آماله في التقدم الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والثقافي؛
- **رابعا**، السعي الدائم للارتقاء بشروط المواطنة بخلق التوازن الضروري بين الواجبات والحقوق، فإذا كانت الواجبات تتلخص في الدفاع عن الوطن وسلامة أراضيه والحرص على أمنه الاجتماعي والاقتصادي وعلى استقراره وانسجام ساكنته، فإن الحقوق تعني في الأساس أن يشعر كل مواطن بكرامته في وطنه، وتكافؤ الفرص في العمل، وتطبيق القانون على الجميع، والارتقاء الاجتماعي والسياسي، والتمتع بالحرية في جميع أصنافها كما يعرفها القانون.

مكانة الوطنية في الذاكرة المغربية :

ضمن هذه المعاني، نتساءل عن موقع الوطنية المغربية في الذاكرة التاريخية والسياسية للمغاربة أولا، وفي الممارسة ثانيا؟.

لخص الأستاذ عبد الكريم غلاب في كتابه "**تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب**" مدلول الحركة الوطنية في العبارات التالية:

- التعلق بالوطن وحبه والدفاع عنه.[1]
- تحرير الوطن من الأجنبي وتوحيد الوطن الممزق، والقضاء على "الانحرافات الأخلاقية والدينية والاجتماعية، وإقامة نظام جديد للمجتمع وللاقتصاد وللدولة، وبعض هذه الأفكار اتسمت بها الثورة الريفية وتجلت فيها أعظم ما يكون التجلي."[2] ثم يضيف عن مكانة السلاح في الدفاع عن المغرب وعن سيادته قوله: "قد عاش السلاح دائما كوسيلة أولى وأخيرة لتحقيق المفهوم الوطني في الواقع المغربي"[3].

أما الزعيم علال الفاسي فكان قد سجل في مؤلفه "**الحركات الاستقلالية في المغرب العربي**" معنى غير بعيد عما أورده السيد غلاب وذلك في قوله : "إن الوطنية بمعنى الدفاع عن النفس؛ والذب عن الكيان والميل للحرية الفردية والاجتماعية صفة من أظهر الصفات التي امتاز بها المغاربة" على الدوام[4]، ثم أورد نماذج من مقاومة الاحتلال دفاعا عن الوطن واستقلاله في الأطلس المتوسط والأطلس الكبير، ومنطقة تافيلالت وأيت عطا، وجهة الريف، وأكد أن الحرب

(1) عبد الكريم غلاب، تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب، ج. 1، ص. 16.
(2) المرجع نفسه، ص. 17.
(3) المرجع نفسه، ص. 15.
(4) علال الفاسي، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، ص. 9.

التي قادها محمد بن عبد الكريم الخطابي حرب وطنية[5]، وأن قائد تلك الحرب رفض استقلال منطقة الريف في إدارة شؤونها الزراعية والاقتصادية، لأن "هذه المطالب لم تتفق مع ما يريده الأمير الخطابي من حرية تامة لسائر مناطق المغرب"[6]، عكس ما زعم الفرنسيون في دعايتهم بأن عبد الكريم كان "مجرد ثائر راغب في الملك وأنه ناقم يطالب بالسلطان"[7] فقد لجأ الفرنسيون إلى تلك الدعاية، كما نعلم اليوم؛ وعلمه أهل البصيرة في ذلك الوقت، لإمالة سلطان البلاد إليهم، والتشكيك في النزعة الاستقلالية لدى المغاربة. واعتبر الزعيم محمد بن الحسن الوزاني في مذكراته أن حركة الأمير الخطابي بالذات كانت حركة وطنية.

الوطنية المغربية بين الكفاح المسلح والمقاومة السلمية:

وإذا كانت جل الدراسات، التي تناولت تاريخ المغرب المعاصر، باستثناء كتابات بعض المنتسبين إلى الحركة الوطنية السياسية ومذكرات ساستها، تشير إلى أن الحروب التي دافعت عن استقلال المغرب، قبل إعلان الحماية وبعد الاحتلال، هي حروب وطنية، سواء من حيث المبادئ التي انطلقت منها، أو الأهداف التي أرادت تحقيقها، فهل يمكن القول: إن المغاربة فوتوا على أنفسهم فرصة الاستقلال وبناء دولتهم الحديثة منذ العشرينيات من القرن الماضي بسبب عدم استثمار المشاعر الوطنية التي وصلت ذروتها في حركة 1921 - 1926، وعدم التحاق ساكنة المدن بالعمل الوطني المسلح؟ وهل موقف زعامات الحركة السياسية المناهض للعمل المسلح، بعد ذلك، في الخمسينيات فوت على المغاربة فرصة توحيد ترابهم، مما جعل الوطن المغربي يدفع ثمنه إلى الآن؟ أم أن غياب التجاوب مع العمل الوطني المسلح في البوادي كان نتيجة نقص حقيقي في مفهوم الوطنية لدى غالبية النخب المدينية التي فضلت الحفاظ على مصالحها وامتيازاتها الممتدة إلى مرحلة الحماية والتجنيس؟ وهل تلك المصالح هي التي أملت عليها البحث عن مسلك آخر للمقاومة لا يمس تلك الامتيازات؟ وهل ذلك المسلك هو نفسه المسلك الذي سار فيه جيل المدن الذي أطلق عليه الزعيم علال الفاسي صفة" جيل جديد متشبع بروح المقاومة السلمية التي لا تعطي السلاح المقام الأول في كل معركة؟"[8] ولماذا لم تظهر المقاومة السلمية زمن المقاومة المسلحة لكي تسندها، كما هو متعارف عليه في منهجيات جميع الحركات التحررية في العالم؟ وهل تأخر ظهور جيل المقاومة السلمية يدل على انفصام الوشائج الوطنية بين المدينة والبادية في تلك المرحلة السياسية، وفي المراحل اللاحقة؟ وهل يستخلص من ذلك

(5) المرجع السابق، ص. 136.
(6) المرجع نفسه، ص. 135.
(7) المرجع نفسه، ص. 137.
(8) المرجع السابق، ص. 145.

رفض المدن التقليدية قيادة البادية المغربية للعمل الوطني؟ وهل يفك ذلك الرفض، إن وجد، بعض ألغاز تأسيس الحركة الوطنية السياسية على استنكار النخب المدينية لمضمون ظهير 16 مايو 1930 الخاص بنظام التقاضي في بعض المناطق الجبلية، في الوقت الذي لم تتحرك فيه تلك النخب ضد الظهائر السابقة التي صدرت في سنوات: 1913، و1914، و1922، والتي لم يكن ظهير 1930 إلا تتمة لها، ألا يفسر ذلك عدم استعدادها لربط مصيرها مع العمل الوطني المسلح؟

يمكن التخمين أن الحركة الوطنية السياسية الوليدة في المدن التقليدية لم تجد، ما تبرر به تخلفها عن نجدة الوطن أثناء محنة الاحتلال، إلا القول بـ "المقاومة السلمية"، والزعم بأن ظهير 16 مايو 1930 هو وسيلة ومنهج لتجنيس السكان البربر، ونشر اللغة الفرنسية بينهم بدل اللغة العربية، وكأن الاحتلال الأجنبي نفسه، الذي لم تقاومه المدن، جاء ليعزز الإسلام واللغة العربية[9]، وأن الظهائر السابقة جاءت لتعلم الناس مفردات اللطيف التي ستردد في صيف 1930. ويذهب الزعيم علال الفاسي إلى أن كتلة الشباب في مدن سلا والرباط وفاس "استطاعت أن تجمع من حولها الأمة كلها للاحتجاج على هذه السياسة التبشيرية الإدماجية"[10]. ولا ندري ما هو المنطق الذي احتكم إليه أولئك الذين جعلوا الأمة المغربية مجسدة في مدن سلا والرباط وفاس، أو المسوغات التي اعتمدوها في اعتبار المقاومة المسلحة التي عرفتها جبال المغرب ووهاده وسهوله؛ والتي أعادت هذه الأمة إلى التاريخ من بابه الواسع، مجرد روافد للحركة الوطنية؟[11] وليست مرحلة من مراحل الحركة الوطنية؟

موقف نخب المدن التقليدية من العمل الوطني المسلح:

لكن ما هو مؤكد في التاريخ هو أن موقف نخب المدن التقليدية كان متعارضا مع توجهات العمل المسلح أثناء المد الاستعماري، على الرغم من الشعور الوطني الذي كانت المدن تزخر به، وفقا لما أشارت إليه كل المصادر المتعلقة بالمرحلة. وربما كانت دعوة الشاعر ابن الأعرج السليماني للمواطنين المغاربة للانخراط في العمل الوطني المسلح لدحر الاستعمار؛ تعبيرا عن ذلك الشعور حين قال:

دع الفتيات يمرحن في القصور ويمم مسعفـــا وادي النكـــور

وسيحاول بعض كتاب الحركة الوطنية السياسية، لاحقا، تسويغ عدم التحاق النخب المدينية بوطنية جبال الأطلس والريف وواحات الصحراء كونها كانت متخلفة عن متطلبات العصر. أما

(9) المرجع السابق، ص. 161-164.

(10) المرجع نفسه، ص. 165.

(11) عبد الكريم غلاب، مرجع سابق، ص 28 وما بعدها.

الحركة الوطنية الجديدة التي ظهرت في المدن بداية الثلاثينات فقد "جاءت بمفهوم جديد يستمد من العصر كيانه، ووجوده، وأسلوبه". ثم أن منهجها لم يكن السيف، بل اختارت "الفكر والإقناع وبلورة المعنى الحقيقي للمواطنة عند المواطنين. بطريق الفكر والإقناع لا بطريق السيف والقوة لأول مرة في تاريخ المغرب."[12]

وهل يمكن أن نستخلص، مما تقدم، أن ما اصطلح عليه بالحركة الوطنية المغربية من قبل المناضلين السياسيين، لفترة ما بعد نهاية الحرب التحريرية في الشمال سنة 1926، وبخاصة بعد الظهير الذي وصف بالبربري، أن ذلك الاصطلاح لم يكن دقيقا؛ لأن الوطنية المغربية، في مفهومها المعاصر، انطلقت من البادية بأريافها وجبالها، وقد كان لذلك انعكاسات سلبية على العمل الوطني ومقاومة الاستعمار في مرحلة ما قبل الاستقلال وبعده. ومن أسباب ذلك في نظرنا استمرار تأثير الأصول الاجتماعية والثقافية وهيمنة روح الزعامة على النخب السياسية التقليدية، وهو ما ظهر جليا في العلاقة بين منهجية "لجنة تحرير المغرب العربي" التحريرية، بقيادة عبد الكريم الخطابي وبين منهجية "مكتب المغرب العربي" السياسية، في القاهرة. وقد تطور الخلاف بين المنهجيتين الثقافيتين إلى تصفية المتعاطفين مع أهداف لجنة تحرير المغرب العربي بعد الاستقلال، وهو ما سيؤدي، كذلك، إلى صراع حقيقي في الداخل بين فصائل المقاومين وجيش التحرير من جهة، وبين السياسيين من جهة أخرى، كما تؤكده مختلف الكتابات حول تلك المرحلة، ومذكرات المقاومين. وظهر ذلك، بوضوح أكثر، في توجهات النخب السياسية المدينية التي حضرت جلسات إكس ليبان، حيث راهنوا على الحلول السياسية للمشكلة الاستعمارية، دون غيرها.

استمرار معارضة النخب السياسية المدينية للعمل المسلح :

فزيادة على ما أشارت إليه مختلف المذكرات التي بدأت تكشف خبايا الصراع الذي كان محتدا ما بين دعاة العمل المسلح ودعاة الحل السياسي، الذين لم يتوانوا عن وصف الأعمال المسلحة ضد المصالح الفرنسية بين 1953 و1954 بأنها أعمال إجرامية[13]، جاءت مذكرات رئيس الحكومة الفرنسية، آنذاك، السيد إدجار فور لتؤكد عمق الاختلاف بين أنصار الكفاح المسلح وبين الوطنيين السياسيين "المؤيدين لفرنسا والأوفياء لمحمد الخامس" على حد ما نقله على لسان السيد عبد الرحيم بوعبيد، وكون هؤلاء وحدهم من يستطيع أن يحولوا دون قيام ثورة عسكرية ضد فرنسا تشمل المغرب والجزائر في وقت واحد[14]. وأكد السيد بوعبيد لرئيس

(12) المرجع نفسه، ص. 22.

(13) عبد الله الصنهاجي، مذكرات من تاريخ المقاومة وجيش التحرير المغربي، ص. 198.

(14) إدجار فور، مذكرات إدجار فور، الخبايا السرية لإكس ليبان، ترجمة محمد العفراني، ص. 63.

الحكومة الفرنسية، وفقا لشهادة إدجار فور، دائما، أن الرجال السياسيين مثله ليسوا مع الاختيار الإرهابي (وهي الصفة التي كان يصف بها كثير من السياسيين المغاربة العمليات الفدائية) وأنهم قادرون، إذا ما توفرت لهم شروط ووسائل معينة، على العمل من أجل تجنب الخطر[15]، ويوضح إدجار فور هذه الشروط بقوله: "يبدو أن الوطنيين أكثر انشغالا بأن تعترف فرنسا رسميا برغبة المغاربة في الاستقلال أكثر من اهتمامهم من أن تمنحهم إياه فورا، وقد شعرت بالتفاهم معهم بالطريقة التي حققنا بها التفاهم مع الوطنيين التونسيين."[16]

وينقل إدجار فور تحذير بوعبيد لفرنسا كون أن الخطر لا يكمن في المدن وإنما في البادية، حينما توجه إليه قائلا: "إن عيونكم مشدودة لما يجري في المدن، والحال أن المدن يمكن حمايتها من الإرهاب إذا ما طوقت، ولكن انتبهوا إلى البادية التي تعتقدون أنها منضبطة بالكامل. سيكون من الصعب ضبط الغرائز هناك"[17]. وإذا صدقت هذه الشهادة، ولا أرى ما يدعو السيد إدجار فور إلى التزوير، فإن رأي السيد بوعبيد في المقاومة المسلحة المغربية لا يختلف عن رأي المدرسة السيكولوجية الكولنيالية في سلوك "الانديجان" (المواطنين الرافضين للاستعمار) باعتباره سلوكا غرائزيا تدميريا.

وفي السياق نفسه يثمن السيد إدجار فور لقاءه بممثلي حزب الشورى والاستقلال بقيادة السيد عبد الهادي بوطالب ومحمد الشرقاوي اللذين كانا، حسب شهادته، "أقل إلحاحا في المطالب من رجال حزب الاستقلال" إلا أنهما عبرا له بكل قوة على ولائهما لمحمد الخامس دون غيره[18]، كما سجل ارتياحه بوفد حزب الاستقلال برئاسة السادة عبد الرحيم بوعبيد واليازدي وبن بركة، وقد تولى الحديث السيد بوعبيد نيابة عن زملائه. وركز في بعض خطابه على البعد الثقافي الفرنسي في المغرب، فرد السيد إدجار فور عليه بقوله: "إن الثقافة الفرنسية هي أنت".[19]

لكن، ومن أجل الحقيقة التاريخية يجب أن نذكر أن مثل هذه المواقف لم يأخذ بها كل الوطنيين من ذوي الأصول المدينية. وكمثال على ذلك أحد أقطاب الحركة الوطنية السيد عبد السلام بنونة الذي كان يرى أن الاستقلال يسترجع بتوحيد قوة السلاح والسياسة معا، وأن كل من يعتقد في "الوصول إلى الاستقلال التام بقوة القلم وكثرة المعارف يكاد يكون من قبيل المحال"[20]، وفي السياق نفسه ما ذكره السيد الغالي العراقي في مذكراته، من أن الزعيم علال الفاسي توجه إلى

(15) المرجع نفسه، ص. 64.

(16) المرجع نفسه، ص. 33.

(17) المرجع نفسه، ص. 65.

(18) المرجع نفسه، ص. 161.

(19) المرجع نفسه، ص. 161.

(20) ابن عزوز حكيم، أب الحركة الوطنية المغربية ج عبد السلام بنونة، ج. 1، ص. 99.

قيادة جيش التحرير مستنكرا ما أبداه السياسيون من مواقف مخزية في حق العمل المسلح، مؤكدا في الوقت نفسه تضامنه مع المجاهدين بقوله: "لنكن واضحين فيما بيننا: اللي جبنوا وخافوا ابتعدوا عنهم، واللي واجهوكم واجهوهم بالحكمة والحجة، وإن تمادوا فاضربوا على أيديهم."[21]

لكن الصورة النهائية للزعامات الحزبية المدينية تبقى صورة مضببة، إن لم نقل معادية للكفاح المسلح. وأحد الأسباب الكبرى لذلك، في نظرنا، هو غياب التفاعل الإيجابي بين بوادي المغرب ومدنه. وقد بدا ذلك جليا مرتين على الأقل: المرة الأولى عندما سعت الزعامات المدينية إلى خلق مرجعية أخرى للحركة الوطنية الجديدة، كما يسميها السيد غلاب، تستند إلى ما أثير من ردود أفعال حول ظهير 16 مايو 1930 فقط، ولم تعتمد أدبيات الحركة الوطنية المسلحة، على الرغم من أن السيد علال الفاسي ذكر في كتاباته أن أهداف الحرب التحريرية التي قادها الخطابي ظلت "غاية كل الوطنيين المغاربة منذ فجر القرن العشرين إلى اليوم"[22] (هذا النص كتب سنة 1948)، والمرة الثانية عندما سعت "إلى محاصرة المقاومة وجيش التحرير وقطع الطريق على عبد الكريم الخطابي"، حسب تصريح الفقيه البصري.[23] ومحاصرة المقاومة المسلحة وجيش التحرير وقطع الطريق على الخطابي كانت له مقدماته، حين تم إقصاء البادية، بصفة خاصة، والمناطق الواقعة خارج مثلث مغرب ليوطي النافع، بصفة عامة، من التمثيل في العمل الوطني السياسي. ويتعلق الأمر بوثيقة المطالبة بالاستقلال، التي قدمها المؤسسون لحزب الاستقلال.

غياب توقيع ممثلي الأرياف على وثيقة 11 يناير 1944:

وقع على تلك الوثيقة (66) ستة وستون شخصية، يمثلون إحدى عشرة مدينة تقع جلها في مثلث ليوطي (المغرب النافع). وكان نصيب ثلاث مدن تقليدية منها واحدا وأربعين "41" توقيعا أي حوالي 63٪ من مجموع التوقيعات، منها 36٪ خاصة بالعاصمة القديمة[24]. وما يلاحظ على تلك الوثيقة ليس خلوها من ممثلي الأرياف ومدن الشمال فقط، بل ضعف تمثيل مدينة عصرية جامعة لمكونات الشعب المغربي؛ ألا وهي مدينة الدار البيضاء، بحيث لم تشارك إلا بتوقيعين اثنين (2).

وما يؤيد أطروحة إقصاء المدينيين لسكان البوادي من العمل الوطني غياب أي إشارة إلى الحروب الوطنية في جبال الأطلس والجنوب والشمال في ديباجة تلك الوثيقة، كمرجعية لهدفهم النبيل، ألا وهو الاستقلال، بل لم يشيروا إلى كونهم امتدادا لأولئك الوطنيين الأوائل الذين ضحوا

(21) الغالي العراقي، ذاكرة نضال وجهاد، ص. 178.
(22) علال الفاسي، الحركات الاستقلالية، ص. 141.
(23) أنظر التصريح في أسبوعية "الصحيفة"، عدد 104 بتاريخ 14 مارس 2003.
(24) أنظر المدن المشاركة وأسماء الموقعين على وثيقة المطالبة بالاستقلال في "مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية"، لأبي بكر القادري، من 1941 إلى 1945، ج. 2، من ص 176 إلى ص 190.

بالنفس والنفيس في سبيل حرية المغرب وعزته، كما لا يوجد في الوثيقة ما ينص على رفض الحماية كمبدأ استعماري، بل اكتفوا باستنكار انحرافها عن غاياتها من خلال:

- تحطيم الوحدة المغربية، في حين أن عقد الحماية نفسه يتضمن تحطيم المغرب وتمزيقه؛
- منع المغاربة من المشاركة في تسيير شؤونهم وممارسة حريتهم؛
- عدم التوفيق بين مصالح مختلف العناصر في البلاد لصالح استئثار الجالية الفرنسية بالحكم وخيرات البلاد؛
- تغير الظروف الدولية.

هكذا بدا لنا، بإيجاز شديد، كيف أهملت الأحزاب السياسية للحركة الوطنية المرجعية الوطنية الممثلة في الدفاع بالسلاح عن استقلال البلاد في جبال المغرب ووهاده، وراحت تؤرخ للحركة الوطنية ابتداء من "ظهور جيل متشبع بالمقاومة السلمية" على حد تعبير الزعيم علال الفاسي، واصطنعت لذلك قضية فرعية كانت بحاجة إليها، هي ظهير 16 مايو 1930، واعتبرته تهديدا للوحدة الوطنية، وكأن فرض الحماية قد وحد البلاد ولم يمزقها، وعدته منهجا للتجنيس والتنصير، وكأن أمر التجنيس والتنصير لم يكن لهما انتشار بين علية القوم في المدن قبل الحماية بأكثر من نصف قرن، وكتكريس لدور النخب السياسية المدينية في العمل الوطني، واستئثار بالحركة الوطنية جاءت وثيقة المطالبة بالاستقلال خالية من أي إشارة إلى التضحيات التي قدمها أولئك المجاهدون في سبيل الله والوطن، منذ مطلع القرن العشرين حتى سنة 1934، والأخطر من ذلك أن الذين ذهبوا إلى إيكس ليبان للتفاوض حول مستقبل المغرب لم يحملوا معهم مشروعا وطنيا لتخليص المغرب، كل المغرب، من براثين الاستعمار، بقدر ما حملوا معهم نصائح لفرنسا حتى لا تغرق في وديان البادية وتتكسر عظمتها أمام ما أسموه بالنزعة التدميرية الغريزية لسكانها، والبحث عن أنجع السبل لمحاصرة المقاومة وجيش التحرير، كما قال الفقيه البصري.

العامل الحاسم في استرجاع الشرعية والسيادة:

وما يتناساه هؤلاء وأولئك أن التعجيل بإرجاع الشرعية السياسية واستعادة المغرب لاستقلاله لم يكن إلا بفضل العمليات الفدائية وهجمات جيش التحرير؛ تلك الهجمات التي أعادت إلى ذاكرة الحكومة الفرنسية هاجس قيام حرب في المغرب ضد فرنسا، كتلك التي قادها عبد الكريم الخطابي التي اضطرت معها فرنسا أن تجند لها 325 ألف عسكري من فرنسا ومن المستعمرات، و400 ألف من المجندين المغاربة. وقد لخص وزير خارجية فرنسا في عهد السيد إدجار فور أمام البرلمان قوة فرنسا التي واجهت بها حرب التحرير بقيادة عبد الكريم الخطابي، مشيرا في الوقت نفسه إلى إمكان تكرارها بقوله "كان لدينا على خط النار 32 فرقة عسكرية و44 سريا، و60 جنرالا

بقيادة المارشال بيتان بطل فيردان"[25]. وكلما تقدمنا في قراءة مذكرات إدجار فور أدركنا كم كانت الحرب الريفية، كما يسميها الفرنسيون، حاضرة ضاغطة على خطط فرنسا في المغرب، وكان يهمه أن يؤثر على الرأي العام الفرنسي، ولذلك عمد إلى تذكيره بقوله: "إن تهدئة المغرب لم تتحقق بالفعل، فحرب الريف ليست بعيدة جدا ولدي بعض الأسباب لأتذكرها، وقد تركت جروحا دامية".[26] فشتان بين مرجعية الوطنيين السياسيين ومرجعية فرنسا في التعامل مع القضية المغربية!.

ثم إن هذا الحضور القوي للحرب الوطنية التي قادها عبد الكريم له ما يبرره عند الفرنسيين وهو الخوف والرعب من حرب العصابات (المقاومة في الجنوب، وجيش التحرير في الشمال).[27] ويؤكد رئيس الحكومة الفرنسية، آنذاك، أن التغلب على هذا الرعب كان يتطلب التغلب على مزايدة المتطرفين من القادة الوطنيين؛ والتعاون مع "الوطنيين المؤيدين لفرنسا والأوفياء، لمحمد الخامس"؛ حسب التعبير المنسوب إلى السيد عبد الرحيم بوعبيد، والذي علق عليه بقوله: " إن بوعبيد وأصدقاءه مصممون على مساعدة فرنسا حتى تتحكم في الأحداث وتمارس سياسة تطور تدريجي"[28].

الخلاصة والنتائج :

وخلاصة القول: إن من لقن الاستعمار الدرس في الدفاع عن الوطن، وضيق عليه الخناق وجعله يحسب ألف حساب حتى لا تضيع منه كل مصالحه هم: أصحاب البندقية، أو الوطنيون المجاهدون في سبيل الوطن ومقدساته.

أما زعامات الأحزاب السياسية للحركة الوطنية التي لم تعتمد الكفاح المسلح مرجعا لنشأتها؛ ومنهجا لبرامجها، فقد استطاعت بثقافتها الذرائعية وبتلويناتها الحربائية أن تستأثر بامتيازات الاستقلال والاستحواذ على غنيمة حرب لم تخضها، وتكون بذلك قد ضيعت على الأمة المغربية فرصة ثانية لتحرير التراب الوطني؛ كل التراب الوطني والانطلاق لبناء دولة المواطنة، التي يتساوى فيها المواطنون في الواجبات والحقوق. وبدلا عن ذلك الهدف النبيل تم إدخال المغرب ومستقبله السياسي والاجتماعي والثقافي إلى حلبة صراع غير متكافئ بين من حصر الوطنية في فئته وحزبه سعيا للحصول على مزيد من الامتيازات والغنائم، وبين من ناضل وكافح من أجل تحرير وطنه والاعتراف باستقلاله، دون أن ينعم بثمار كفاحه، بل أصبح في وضع أشد قسوة أحيانا من قسوة الاستعمار.

---

(25) إدجار فور، الخبايا السرية لإكس ليبان، مرجع سابق، ص. 8.

(26) المرجع نفسه، ص. 154.

(27) أنظر المرجع السابق، ص. 9 و ص. 18.

(28) أنظر هذين القولين في ص. 63 و ص. 64 من المذكرات.

ومن نتائج ذلك الصراع أن تحول شركاء المغرب إلى فرقاء، فتحصن، أو تقوقع، كل فريق في مواقعه بمختلف الوسائل والأساليب، وانحلت الرابطة الوطنية التي سعى إليها الوطنيون المجاهدون إلى فئات وعصبيات، وحلت الأنانية محل المصلحة العامة، و"وصل الانحلال والأنانية إلى استشراء التناقضات، وانتشار المزايدات، والتلاعب بالمقومات. مما جعل المواطنين يتساءلون عن نتائج النضال. وعن رجالات الكفاح وأبناء الوطن المجاهدين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ...انقلبت الآية". على حد تعبير السيد الغالي العراقي[29]، الذي لم يجد ما يعبر به عما آلت إليه الأمور إلا قوله: "وللأسف الشديد لم تبادر لا الملكية، ولا الحركة الوطنية، ولا حتى المقاومة المسلحة لمناهضة هذا المد الاستعماري الجديد، لأن الجميع كان منغمسا في نشوة النصر، ... ويخطط لمستقبل غامض ولمصالح ضيقة."[30]

والجميع يعلم اليوم أن المغرب قد دفع مقابل تلك الأنانية؛ وذلك التلاعب بالمقومات؛ ومنهجية توجيه المستقبل وجهة فئوية غامضة ثمنا غاليا وقاسيا، فهو لم يستكمل بعد وحدته الترابية، في الوقت الذي اتسعت فيه الهوة بين مكونات المجتمع المغربي ومختلف شرائحه الاجتماعية. وتعذر تحقيق حد أدنى من المشاركة في الزمن الاجتماعي والثقافي بينها، وأصبح المغاربة يحتلون، دوليا، المراتب الأخيرة في التنمية الاجتماعية، والمراتب الأولى في نسبة الأمية ومدن الصفيح والأحياء المهمشة، وكسوف شمس الاستقلال على مناطق شاسعة من الأرياف والبوادي الحصون الحصينة للملكية في المغرب؛ وقلاع الدفاع عن الاستقلال الوطني.

فهل حان الوقت للقيام بالنقد الذاتي والتصالح مع تاريخ المغرب الحديث؛ بإعادة الاعتبار إلى الكفاح المسلح الذي خاضه أجدادنا وآباؤنا بمنظور وطني تكاملي بين دور المدينة والبادية؛ كفاعلين متكاملين وليس كفريقين متواجهين؟ وإذا ما تم إنجاز ذلك، يمكن لنا أن نحقق بناء مشروع وطني، بمفهوم جغرافي وسكاني، متحرر من أي نزعة فئوية، أو نخبوية، أو جهوية تعطي لنفسها امتياز الوصاية على الوطنية، وامتلاك السلطة والثروة. وآنذاك سيتم السير نحو المستقبل المشترك لكل المغاربة بدويين وحضريين.

---

(29) الغالي العراقي، ذاكرة نضال وجهاد، مرجع سابق، ص. 242.

(30) المرجع نفسه، ص. 243.